رسائل الاستزارة في الأدب العربي
دراســـة أدبيـــة

إعـداد
أستاذ مشارك
د/ بدريـة محمـد المعـتـاز
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

رسائل الاستزارة في الأدب العربي
دراسة أدبية

خطة البحث

التمهيد ويشمل:
التعريف بفن الرسائل، ورسائل الزيارة.

المبحث الأول:
أولًا: دراسة أدبية لأنواع رسائل الزيارة.
ثانيًا: أجوبة رسائل الاستزارة وأنواعها.
المبحث الثاني: ويشمل دراسة فنية تستعرض دراسة :-
أ- ألفاظ الرسائل ودلالتها.
ب- البناء التركيبي للرسائل.
ج- المحسنات البديعية وتشمل دراسة كل من:-
(الجناس، السجع، الطباق، المقابلة، الاقتباس، التضمين).
د- دراسة الصور الفنية وتشمل:-
(التشبيه، الاستعارة، الكناية).

فهرس الموضوعات:
فهرس المصادر والمراجع.

تمهيد:

أ- التعريف بفن الرسائل الإخوانية[1]:-

الرسائل عبارة عن قطعة نثرية أو شعرية تصور العلاقات الاجتماعية بين المرسل والمرسل إليه؛ أي بين الكاتب وأحد أصدقائه، أو معارفه، أو أهله. وتتنوع الموضوعات حسب المناسبة فهي أشبه بالموضوعات الشعرية حيث تتناول التهنئة والتعزية وقضاء الحاجة والشفاعة والشكوى والعتاب والاعتذار والاستعطاف والزيارة والهدايا.. يقول القلقشندي في كتابه(صبح الأعشى[2]): " من مقاصد المكاتبات، الإخوانيات، مما يكتب به الرئيس إلى المرؤوس، والمرؤوس إلى الرئيس والنظير إلى النظير.. ولها موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها.. والكاتب إذا كان ماهرًا، أغرب معانيها، ولطف مبانيها، وتسهل له فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها أمثلة ورسوم لا تتغير، ولا تتجاوز،وهي على سبعة عشر نوعًا منها مكرر، التهاني، الشفاعات والعنايات، التشوق، الاستزارة. نستخلص مما سبق: أن المقصود بالرسائل الإخوانية: الرسائل التي تعبر

(١) انظر ما ورد في:
فنون النثر في الأدب العباسي، محمود عبد الرحيم صالح، ص١٠٢، دار جرير للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م عمان – الأردن، الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ص٤٥٤، دار النهضة العربية بيروت – لبنان، ١٩٧٦م، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ص٤٩١، شوقي ضيف دار المعارف بمصر، تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الثاني) ص٥٦٢، دار المعارف بمصر، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، بكري شيخ أمين، ص٢٨٨، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٩م، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، محمود رزق سليم، ص ٣٢، مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، د. ط.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد القلقشندي. جـ٩، ص١٢٠، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. د..ت، د.ط.
وللاستزادة انظر على سبيل المثال ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب للحصري٧٤٣/٣، ٨٢٤/٣: دار الجيل بيروت ط٤، ١٩٧٢م ومكتبة المحتسب- عمان.

عن الانفعالات النفسية والأحاسيس الصادقة من الكاتب إلى المكتوب إليه يشاركه حالات الفرح والترح ويجعل من قلمه متنفسًا يعبر فيه عن مكوناته، وما يعتلج فؤاده من مشاعر فياضة تجاه أخ أو صديق.

ب- التعريف بفن رسائل الاستزارة " الزيارة" وأهميتها:

لم أعثر في أمهات الكتب والمراجع تعريفًا للزيارة، وإنما وجدت فقط تعريفًا للاستزارة، فقد قصر القلقشندي رسائل الزيارة على رسائل الاستزارة، وهي كما قال[(١)]:"رقاع الاستزارة.. إنما تشتمل على وصف حالات الأنس ومجالس اللذات[(٢)]، ومشاهد المسرات.. ويجب على الكاتب أن يودعها حلو الألفاظ، ومؤنق المعاني، وبارع التشبيهات، ويبالغ في تشويق المستزار إلى الحضور ويتلطف فيه أحسن تلطف". وتبعه المتأخرون في كتب المراجع في تعريف رسائل الزيارة، ونستطيع القول: إن رسائل الزيارة هي العلاقة الإنسانية المكتوبة بين الأصدقاء والمعارف، وبين المرؤوس والرئيس واستطاع القدماء التفريق بين العيادة (عيادة المريض) والزيارة،وعابوا الإطالة والمكوث عند المريض؛ لأنها عندئذ تتحول إلى زيارة، وقالوا في ذلك[(٣)]:- (المريض يُعاد، والصحيح يُزار).

وبناءً على النصوص الأدبية التي عثرت عليها قمت بتصنيف أنواع الاستزارة إلى ثلاثة أصناف:

أولاً: رسائل دعوة خاصة للزيارة.

ثانيًا: رسائل دعوة للزيارة مقترنة بوصف للأطعمة والمشروبات.

ثالثًا: رسائل دعوة للاستزارة ووصف لمجلس اللهو والبيئة المحيطة به.

---

(١) انظر ما ورد في صبح الأعشى: القلقشندي. ١٥٠/٩.

(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١١٧/١٩، على سبيل المثال لا الحصر. وللاستزادة الرجوع إلى الأغاني للأصفهاني جميع الأجزاء والمجلدات.

(٣) انظر ما ورد في: عيون الأخبار لابن قتيبة الدنيوري ٤٤/٧.

وتتجلى أهمية رسائل الزيارة؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام حثَّ على الزيارة، وبين ثوابها. قال عليه أفضل الصلاة والتسليم: (من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، نادى منادٍ، بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا) رواه الترمذي وقال: حديث حسن[(١)].

وقد كان العصر العباسي عصر انفتاح على الحضارات والثقافات المختلفة، وبغض النظر عن أنواع الزيارة: أكانت زيارة مجلس خير، أم مجلس سوء فهي تعكس الحياة الثقافية والاجتماعية بصفتها رسائل تمثل العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في المجتمع، كما تعكس إيجابيات وسلبيات العصر من الناحية السياسية والاجتماعية والأدبية. ومدى ما لحق المجتمع من تغير جذري في البنية التركيبية، وأثر دخول العناصر الأجنبية والتيارات الفكرية المتعددة، كما تكشف بدقة متناهية المواهب الفنية، والإبداع الأدبي والقدرة على الوصف وترجمة ما يموج من أحاسيس متوهجة تجاه قريب أو صديق.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الدراسة العلمية تعد البكر في هذا المجال فكما أسلفت سابقًا: إن أمهات الكتب لم تعرف الزيارة بشكل عام، وإنما اقتصرت على رسائل الاستزارة بشكل خاص، ولم يشر أحد إلى أنواعها، وفي هذه الدراسة سأحاول جاهدة أن أستوفي المعلومات المطلوبة دون إسهاب أو خلل ونقص في المعلومات.

* = *

(١) انظر ما ورد في رياض الصالحين: أبي زكريا يحي النووي الدمشقي ص١٣٢، مؤسسة الرسالة. د. ت.

المبحث الأول
دراسة أدبية لأنواع رسائل الزيارة

١- رسائل دعوة خاصة للاستزارة.
٢- رسائل دعوة للاستزارة ووصف للأطعمة.
٣- رسائل دعوة للاستزارة ووصف للمجلس.

أولًا: رسائل دعوة خاصة للاستزارة:

في هذا النوع من الرسائل يركز الكاتب على توضيح مكانة المدعو وأهمية تواجده، ويتخذ من ألفاظ خاصة بعينها وسيلة ليصف فيها ما يكتنزه من مشاعر فياضة، ورغبة صادقة في حضوره، والتمتع بمشاركته المجلس، فيضفي عليه مزيدًا من السرور والانتعاش.

نورد على سبيل المثال لا الحصر أمثلة على ذلك:

كتب المعري إلى أحد أصدقائه يدعوه للمشاركة والحضور في مجلس لا يتم الأنس إلا بوجوده يقول في ذلك[1]:

" أصلحك الله وأبقاك، لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالي، لكي يحدث لي أنسك، يا زين الأخلاء، فما مثلك من غير عهد أو غفل ".

وأما أبو الفرج الدمشقي فيختصر رسالته ببيت شعري واحد ينم عن عاطفة تمور بالحب والتشوق لهذا الصديق، فإذا غاب الصديق عن المجلس فقد تلاشى ضوء السرور فنغص عليه سعادته وسروره، يقول في ذلك[2]:-

شهد الله أن كل سرور غبت عنه فليس بسرور

.

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٣٦١/٣ وانظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ١ / ٦٤١.

(٢) انظر ما ورد في: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني. بكري شيخ أمين، ص٢١٩، دار العلم للملايين. وللاستزادة العلمية انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٧٤٣/٣.

وفي نفس المعنى وإن اختلف اللفظ أنشأ الصولي رسالة إلى أحد أصدقائه يقول فيها[1] :-

حضـــــر الســـــرور وعيبـــــه أن لســـــت مســـــعدنا عليـــــه

.

ومنه أيضًا رسالة أحمد بن يوسف الكاتب إلى أحد أصدقائه، فعندما رعدت السماء وبرقت أعطى الشتاء لمسة جمال سحرية على المجلس الذي لن يزدهي وينتشر السرور إلا بتواجد قطب السرور. يقول في ذلك[2] :-

(يومنا يوم ظريف النواحي، رقيق الحواشي، قد رعدت سماؤه وبرقت، وحنت وارجحنت، وأنت قطب السرور ونظام الأمور، فلا تفردنا منك فنقل، ولا تنفرد عنا فنذل؛ فإن المرء بأخيه كثير وبمساعدته جدير).

وينشئ الكاتب إسحاق بن إبراهيم الموصلي رسالة تحمل نفس اللفظ والمعنى، وإن اختلف اللفظ في بداية الرسالة، فقد اتفق المعنى، يقول في ذلك[3] :-

(يومنا يوم لين الحواشي، وطيء النواحي، وسماؤنا قد أقبلت، ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تفردنا فنقل، ولا تنفرد عنا فنذل).

وكتب أحدهم يدعو صديقه لاستزارته واصفًا مجلسه وقد عبق وفاح الحبور والسرور بين أرجائه، ولكنه لم يعبه إلا غياب الصديق وفي ذلك يقول[4] :-

---

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤١ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت.

(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر، قوبل على نسخة قديمة بالكتبغانة الخديوية، د.ط. د. ت.

(٣) انظر ما ورد في زهر الآداب: الحصري القيرواني ٢/ ٤١٧، ٥٤٥.

(٤) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤١.

نحن في أطيب الحبور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
.
عيب ما نحن فيه يا أهل ودّي أنكم غبتم ونحن حضور
.
فأعدوا المسير بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياح فطيروا
.

ونستشعر دفء العلاقة بين الكاتب والرئيس حيث يستهل علي بن خلف رسالته ممزوجة بالوصف الحسي يدعوه للحضور حتى يكتمل طلوع البدر بنقل قدمه إليهم، ويكمل نقصهم بتمامه يقول في ذلك(١):- " رقعتي – أطال الله بقاء سيدي – ومجلسي بمن حله من خدمه، ونزله من صنائع كرمه، فلك مزين بأنجمه، فإن رأى أن يطلع فيه بدر بطلوعه، وينقل قدمه إليهم، ويكمل نقصهم بتمامه، ويضبط ذلك إلى تليد أنفاسه، فعل إن شاء الله تعالى ".

وتتميز رسائل علي بن الخلف أنها تقوم على فن الوصف مقترنة بدعوة الاستزارة مستهلًا رسالته بالدعاء، ثم يعرج على وصف مجلسه محددًا المكان (البستان)، والفترة الزمانية (الطير في الأوكار)، ثم ينتقل لوصف رياض البستان، وما يحيط به من مناظر خلابة جعلته يقدم على إنشاء الرسالة ويستدعيه لزيارته حتى تكتمل مسرته وسعده في هذا اليوم، نجتزئ من رسالته الطويلة قوله(٢):-

(كتبت أطال الله بقاء سيدي –وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني والطير في الأوكار، والأنداء تهبط كالتيار، والليل مشتمل على الصباح.. فقلت: هذا المراد الذي يحط به الرائد رحله، ويوفد إلى أهله، ويدعو إلى اختيار من يهب إلى السرور، ويساعد على الحضور، للمشاركة في التحلي ببهجته، والتمتع بنضرته، فكان مولاي أول من

(١) انظر ما ورد في صبح الأعشى: القلقشندي: ١٥١/٩.

(٢) المصدر السابق نفسه. وللاستزادة العلمية له رسائل أخرى نفس المصدر السابق ٩/ ١٥٢ – ١٥٤.

جرى إليه ذكري، ووقع عليه طرف فكري؛ لأنه الساكن في فؤادي، الحال في كل رقادي، فإن رأى - أراه الله ما يقر العين- أن يكمل مسرتي بنقل قدمه إلى، واطلاع سعد طلعته على ليتمم محاسن ما وصفته، ويكمل الالتذاذ بما شرحته، فعل إن شاء الله تعالى).

وقد راعى الكتاب الحالة النفسية للصديق خاصة إذا كان مدمنًا ومعاقرًا للخمر، فإذا نفذت من مجلسه دعاه للاستزارة حتى يحظى بالكرم والأنس، وفي ذلك كتب أحد ولاة البصرة وهو (محمد بن أيوب الهاشمي) إلى محمد بن بشير رسالة يستدعيه للاستزارة، يقول في ذلك[1]:-

(اشرب النبيذ وأنفق الدراهم إلى أن يمسك المطر، ويتسع لك التطفيل، ومتى أعوزك مكان فاجعلني فيئة لك والسلام).

وقد يوجه الكاتب الدعوة إلى صديقه، ويطلب منه تكرار الاستزارة وذلك ردءًا للشائعات، من ذلك ما حدث للعتابي.

اجتاز عبدالله بن طاهر بالرقة بمنزل العتابي، فقال: أليس هذا منزل كلثوم ابن عمرو؟ قيل نعم، فثنى رجله، ودخل إليه فألقاه جالسًا في بيت كتبه، فحادثه وذاكره، ثم انصرف، فتحدث الناس في ذلك، وقالوا: إن الأمير لم يقصده، وإنما اجتاز به، فأخطر ذلك الزيارة، فكتب العتابي إلى عبدالله بن طاهر[2]:

يا من أفادتني زيارته ... بعد الخمول نباهة الذكر

قالوا الزيارة خطرة خطرت ... وبحار برّك ليس بالخطر

أبطل مقالتهم بثالثة ... تستنفد المجهود من شكر

لا تجعلن الوتر واحدة ... إن الثلاث تتمة الوتر

(١) انظر ما ورد في: الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ١٠ / ١٣٥.

(٢) الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني: ٧/١٢.

فبعث الأبيات إلى أن زاره ثلاثًا.

وكتب أحد الكتاب يستدعي صديقه لزيارته محذرًا إياه من استخدام ألفاظ الاعتذار (نعم، سوف، لي شغل) حاثًا إياه على تلبية الدعوة وسرعة الحضور يقول في ذلك[1]:-

كن جوابي إذا قرأت كتابي ... لا تردن الكتاب جوابا

أعفني من نعم وسوف ولي ... شغل وكن سيدًا دُعي فأجابا

نستنتج مما سبق أَن هذا النوع من الرسائل يعتمد الكاتب فيه على ألفاظ ومعان محددة تبين علو مرتبة المدعو، وأهميته في حضور المجلس، ومشاركته تكشف عمق أواصر العلاقة الإنسانية بين الأصدقاء (سرور – حبور – أنس – نقل قدمه إلي)، كما أثبتت من ناحية أخرى أن الكاتب يستعين بحاسة البصر ليصور المناظر الخلابة حتى يثير رد فعل نفسي إيجابي من المدعو بغض النظر إن كان رئيسًا أم مرؤوسًا. ورسائل دعوة للاستزارة أثبتنا ورود التكرار فيها اللفظي والمعنوي إلى جانب استخدام الأدعية في الاستهلال لجذب انتباه المتلقي وإثارة الحماس.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة ونحيل لمن يرغب بالاستزادة[2].

* = *

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ٦٤٤/١.

(٢) للاستزادة العلمية انظر ما ورد في: عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٣١٩/١، دار الثقافة بيروت – لبنان، د. ط. د. ت.
صبح الأعشى للقلقشندي ٩/ (١٥١ – ١٥٤).
رسائل بديع الزمان الهمذاني إلى شمس المعالي. زهر الآداب وثمر الألباب ٢/ ٤١٧ – ٤١٨.

النوع الثاني: رسائل دعوة للاستزارة ووصف للأطعمة.

عندما أشرق نور الخلافة العباسية استحدثت حضارتها الاجتماعية من العادات والتقاليد الفارسية، وانتقل المطبخ الفارسي إلى الموائد العربية، فحظيت القصور بألوان متعددة من الأطعمة والأشربة. وحتى إن الخليفة العباسي الأمين، وهو شاعر يجيد العزف، ويحب مجالس الغناء والطرب له مؤلفات عدة في كتب الطبخ(١).

وقصور الخلفاء لم تخل من الأدباء الذين بهرهم هذا التعدد في الألوان والمذاق، والعين تفتن بالألوان والأشكال، والخيال يبهر بالجمال. فنشطت تبعًا لذلك الأغراض الشعرية، فاستحدث فن من الشعر خاص بوصف الأطعمة والمشروبات التي تقدم على موائد الخلفاء والطبقة الخاصة، وما يقدم على مائدة الفقراء والعامة. وهذا أوصلنا إلى معرفة الحياة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي وحتى الديني؛ لذلك عكف العلماء على رصد ودراسة الألفاظ الخاصة بالأطعمة والمشروبات، فعلى سبيل المثال من ألفاظ الأطعمة التي اشتهر تداولها في تلك الفترة مثل: وسكباج، فالوذج.

وكاتب الرسائل الإخوانية (الاستزارة) رصد بدوره ما يقدم من طعام وشراب، واستغل ذلك في إثارة شهية المدعو حتى يلبي الدعوة، ولم يكتف الأدباء بذلك بل انشؤوا موضوعات أخرى اندرجت تحتها الرسائل السابقة، فكتبوا في التحذير من التأخير في تلبية الدعوة،والتأخر عن الزيارة، والاعتذار عنها، ورفض دعوة الاستزارة،وهذا كله أضاف تجددًا وإثراءً في موضوعات الاستزارة الخاصة بالطعام.

ولأهمية الألفاظ الواردة في وصف الطعام أفرد الحصري القيرواني دراسة عميقة لها في كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب). دون فيها ألفاظ

(١) انظر رسالة ماجستير للباحثة (الرسائل الإخوانية في العصر العباسي الأول) دراسة موضوعية وفنية. وأيضًا رسالة الدكتوراة (الرسائل الإخوانية في العصر العباسي الثاني).

أهل العصر الدارجة في وصف الطعام ومقدماته وموائده وآلاته، وما يقدم من ثمار وفواكه[(١)].

وهذا النوع يعتمد على وصف ما يقدم من طعام لذيذ وشراب يفتك بالصبر، فلا يلبث المدعو إلا أن يلبي الدعوة.

كتب الوزير العباسي إلى نديم لهيستزيره ويحثه لزيارة الدويرة واصفًا له ما يقدم من أكل شهي (سكباج)، ونبيذ أحمر. يقول في ذلك[(٢)]:-

أيها الملك في شيخي ... قم بنا نحو الدُّوَيْرة

فلنا فضلة سكبا ... ج لدينا في قديرة

ومدام من دم الكر ... مة باتت في ذكيره

أما محمد بن باج فيصرح لصديقه بنوع النبيذ حاثًا إياه على سرعة المجيء واصفًا له ما يقدم من طعام ولهو وتسلية، يقول في ذلك[(٣)]:-

عندنا قدر لذيذ ... ليس للقدر شريك

(١) انظر ما ورد في ٣٤١/١، ٣٤٩.
وللاستزادة العلمية انظر ما ورد في: الأغاني: أبو فرج الأصبهاني (١٦/ ٨١، ٨٢، ١٢٧، ١٣٦) وأخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي ص٣٠، ٦٣.

(٢) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ٦٤٢/١. امتنعت عن ذكر الأبيات لأنها لا تليق بالمادة العلمية، وإنما وردتها كدلالة قطعية على ما تم في المجالس من لهو وغناء وفسق ومجون وطعام وشراب. فمن يريد الاستزادة عليه الرجوع إلى المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ٦٤٢/١. امتنعت عن ذكر الأبيات لأنها لا تليق بالمادة العلمية وإنما وردتها كدلالة قطعية على ما تم في المجالس من لهو وغناء وفسق ومجون وطعام وشراب. فمن يريد الاستزادة عليه الرجوع إلى المصدر السابق نفسه.

.

ونبيـــــذ مـــــن زبيـــــب .....

.

وجحظة البرمكي ينشئ رسالة لصديقه يستزيره واصفًا ما يحتويه المجلس من فرحة غامرة، وقدر موقرة، وراح يحثه على الإسراع لمشاركتهم المجلس. يقول في ذلك[1]:-

لنـــا يـــا أخـــي فرحـــة وافـــرة وقـــــدر مـــــوفرة حاضـــــرة

.

وراح تريـــــــ ك إذا صـــــــفقت ســـنا الـــبرق في الليلـــة المـــاطرة

.

إلى أن يقول:

فـــواف إن كنـــت يـــا ابـــن لكـــرام وحاشـــاك في الســـاعة الآخـــرة

.

ومحمد بن مكرم أحد الكتاب الذين عرفوا بالفسق والمجون يكتب رسالة نثرية إلى أبي العيناء يصف فيها الطعام والشراب، وما يحدث في المجلس من مجون. يقول في ذلك[2]:-

(عندنا سكباج يعرف المجنون، وحديث يطرب المحزون، وإخوانك الملحدون، فلا تعلوا علي وائتون).

ولم يتوقف نتاج الكتّاب على تصوير الموائد؛ بل إلى جانب دعوة الاستزارة كانوا يحثونهم على الاستعجال، وعدم التأخير. من ذلك ما كتبه كشاجم إلى صديق له يدعوه[3]:-

كـــن جـــوابى ولا تـــركن إلى عـــذر فـــإن ركنـــت إلى شـــيء أتينـــاه

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصبهاني ٦٤٢/١ – ٦٤٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه ١/ ٦٤٣.

فقد تيقنت أني ما التمست أخًا ... مساعدًا قط إلا كنت إياهُ

ومثله أيضًا رسالة أبي المؤيد محمد الصائغ الجزري المعروف بالعنتري إلى أحد الكتاب يطلب منه عدم التسويف وتقديم الأعذار[1]:-

دعوني من المطل الذي لا ينقضي ... أبدًا وسقم القلب بالتعليل

قل لي نعم أو بغير توقف ... فاليأس أروح لي من التطويل

لأكون من طمعي الكذوب كمن رأى ... أضغاث أحلام بلا تأويل

أما أبو مسلم بن بحر فيكتب إلى صديقه سعيد بن نوقة مستهلًا رسالته بالدعاء له حاثًا إياه على سرعة تلبية الدعوة يقول في ذلك[2]:-

تلقاك يومك بالأسعد ... وأعطيت سؤلك في أحمد

فبادر إلى وقيت الردى ... وهب لي صلاتك في المسجد

وفي حال حضور الطعام، وتأخر الصديق في المجيء يشرع الكاتب بإرسال رسالة إلى صديقه يصف فيها أثر التأخير فقد صاحت المدام،

(١) انظر ما ورد في عيون الأنباء وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٣٢٢/٢ وللاستزادة العلمية انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٩٢/٤، رسالة الحسين بن الضحاك إلى الحسن بن رجاء، الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ٨٤/١٦ رسالة أبو ظبية العلكي إلى محمد بن أبي محمد العباسي اليزيدي، رسالة سعيد بن عبد الملك إلى عبيد الله بنس ليمان زهر الآداب: الحصري القيرواني ٥٥٠/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢٢/٧ رسالة لإبراهيم بن العباس.

(٢) المصدر السابق نفسه ١/ ٦٤٣.

والجوع أضرم أحشاءهم بلهيب لا يخمده إلا حضوره. يقول في ذلك أحد الكتاب[1]:-

جعلت فداك قد حضر الطعام ... وصاحت من تأخرك المدام

وأضرمت بالجوع أحشاءهم ... بنار تزيد على كل نار

والتأخير أسوأ كابوس يحل على المضيف؛ فيدب السأم ويقتل التشوق في لقاء الصديق وينجلي الليل مودعًا أصحابه ليبزغ شباب النهار، وهم في حالة سأم من الانتظار، وفي ذلك كتب كشاجم إلى أحد أصدقائه[2]:-

تأخرت حتى كدت الرسول ... وحتى سئمت من الانتظار

وأوحشت إخوانك المسعدين ... وفجعتهم بشباب النهار

وأضرمت بالجوع أحشاءهم ... بنار تزيد على كل نار

وكتب أحد الكتاب يبين نوع العقاب في من يتأخر عن تلبية الدعوة، فمن يتأخر يستحق الجوع القارص، ومن حضر فعليه التلذذ بأكل أطايب الطعام والشراب يقول في ذلك[3]:-

إن الفتوة كلها ... في أكل ما يتلهوج

فإذا تعجل خمسة ... من ستة قد أزعجوا

(١) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء. الراغب الأصبهاني ١/ ٦٤٣.
(٢) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء. المصدر السابق نفسه ٦٤٦/١.
(٣) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء. المصدر السابق نفسه ٦٤٦/٦.

فـــــدع انتظـــــارك واحـــــداً لجماعـــــة قـــــد زوجـــــوا

وابن المعتز وآخرون معه لهم رأيهم الخاص في من لحقه التأخير في تلبية الدعوة. فمن يصدر منه ذلك على الكاتب أن يتجاهله بل وينساه تمامًا وفي ذلك كتب ابن المعتز[1]:-

إذا مـــا تـــأخر مـــن قـــد دعـــوت فدعـــه ومـــا اختـــار مـــن أمـــره

ولا تشـــــــربن بتـــــــذكار ولكـــن تشـــاغب علـــى ذكـــره

وكتب إبراهيم بن المدبر إلى بدعة وتحفة يستدعيهما فتأخرتا عنه فكتب إليهما[2]:

قـــل يـــا رســـول لهـــذه ولهـــذه بـــابي همـــا

قـــد كـــان وصـــلكما لنـــا حســـنًا ففـــيم قطعتمـــا

أعريـــب ســـيدة النســـا بهجرنـــا أمركمـــا

كـــلا وبيـــت الله بـــل هـــذا جفـــاء منكمـــا

ويصف لنا إبراهيم بن العباس وقع تأخر الزيارة على المدعو إليه، وما يعتريه من هم وغم لا يزول إلاَّ برؤية المدعو، من ذلك أنه ذات مرة دعا جماعة من إخوانه ومن جواري القيان، ودعا (قينة)، فأبطأت، فتنغص عليهم يومهم، وعبثت الأفكار السيئة برأسه، وشغل قلبه

(١) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء: الراغب الأصبهاني ١/ ٦٤٦.

(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٢٥/١٩ وانظر للاستزادة ما ورد في ١٢٦/١٩.

بتأخرها، ولكن سرعان ما وافته؛ فسري عنه، وطابت نفسه، وشرب، وطرب، ثم دعا بدواة فكتب:

ألم ترنا يومنا إذ نأت ... فلم تأت من بين أترابها
وقد غمرتنا دواعي السرور ... بأشعا لها وبأ لهابها
ومدت علينا سماء النعيم ... وكل المنى تحت أطنابها
ونحن فتور إلى أن بدت ... وبدر الدجى بين أثوابها
فلما تأت كيف كنا لها ... ولما دنت كيف صرنا بها

وأمر من حضر فقرأ عليها الأبيات، فتجنت، وقالت: ما القصة كما وصفتم، وقد كنتم في قصفكم مع من حضر، وإنما تحملتم لي لما حضرت فأنشأ يقول:

يا من حنيني إليه ... ومن فؤادي لديه
ومن إذا غاب من بينهم ... أسفت عليه
إذا حضرت فما منهم ... من أصبو إليه
من غاب غيرك منهم ... فأمره في يديه

والكاتب يعذر صديقه إذا تأخر، ويقبل عذره، وفي ذلك كتب الفضل بن محمد اليزيدي إلى بعض إخوانه يقول في ذلك[1]:-

(١) انظر ما ورد في الأغاني الأصبهاني ١٨ /٩٢.

إنـــي امـــرؤ أعـــذر إخـــواني ... في تـــركهم بـــري وإتيـــاني
لأنـــه لا لهـــو عنـــدي ولا ... لـــي اليـــوم جـــاه عنـــد ســـلطان

واندمجت القريحة الشعرية مع النثرية لدى الكتاب، واستغلوا الموائد في وصف ما يعتري الضيف من إقبال ونهم شديد على الطعام، من ذلك ما رواه أبو الفياض: زار أبو شراعة أبا أمامة فوجد عنده طفشيلاً؛ فأكله كله، فقال أبو شراعة يمازحه[1]:-

أعـين جـودي لـبرمـة الطفشـيل ... واســتهلي فالصــبر غــير جميــل
فجعـــتني بهـــا لم تـــدع للعـــذر ... في صـــحن قـــدرها مـــن مقيـــل
فخلطنـــا بلحمـــه عـــدس الشـــا ... م إلى حمـــص لنـــا مبلـــول
فأتتنـــا كأنهـــا روضـــة بـــالحزن ... تـــدعو الجـــيران للتطفيـــل
ثـم أكفـأت فوقهـا جفنـة الحـي ... وعلقـــت صـــحفتي في زبيلـــي
فمنـــى اللّه لـــي بفـــظ غلـــيظ ... فـــــأمره في يديـــــه
فتغنـــى صـــوتًا ليوضـــح عنـــدي ... حـــي أم العـــلاء قبـــل الرحيـــل

وقد تنبه الشعراء إلى أهمية تبادل الزيارة، وعدم قصرها على طرف واحد، فإذا قصر أحدهما في الدعوة استوجب على الصديق إرسال رسالة تنبيه إلى أهمية تبادل الزيارة، من ذلك كتب أحد

(١) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو فرج الأصبهاني ٣٦/٢٠ – ٤٠ وللاستزادة العلمية.

الكتاب رسالة إلى صديقه الذي أكثر من دعوات استزاراته في حين نجد أن صديقه قد تغاضى عن ذلك فقال[1]:-

أبـــــدا تحصـــــل عنـــــدي ثـــــم لا أحصـــــل عنـــــدك

إن تناصـــــــــــــــفني وإلا أبـــــت يـــــا طـــــائي وحـــــدك

ومن الطريف أن بعض الكتابكان يقوم بحصر لأسماء الأصحاب، وعدد مرات الدعوات من ذلك ذكر بعض الكتَّاب أنه كان يعاشر أحدهم؛ فاتفق أن دعاه يومًا قال: فلما تمكنت اشتغل عني صاحب الدعوة، فعثرت برقعة بخطه فيها: فلان دعاني مرتين ودعوته ثلاث مرات، فعليه دعوة،.. فلما انتهيت إلى اسمي فرايته قد حصل علي دعوات فخرجت وقلت علي أن لا أتناول طعامك حتى أرد ما علي فكتبت له[2]:-

أرى الـــدعوات قـــد صارتفروضًـــا ودينًـــا في البريـــة مستفيضًـــا

فـأكره أن أجيـب فتـى دعـاني ولا أدعـــوه فيلقـــاني بغيضًـــا

وهنا يتجلى لنا التحول الاجتماعي في العلاقات الإنسانية فالعصور السابقة لم يكن المدعو يترصد ويعد مرات زيارة الأصدقاء ويطالب بردها، فجل اهتمامه حسن ضيافتهم، ونشر السعادة بينهم، في حين تحولت في العصور العباسية إلى واجب وفرض، وعُدَّ هذا العمل قبيحا، ونسب إلى فعل التاجر، وفي ذلك كتب أحدهم[3]:-

إذا كنـت تـدعونى لأدعـوك مثلـه ففـعـل ـك يتـــحول إلـــى تاجـــر

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤٣.
(٢) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤٦.
(٣) المصدر السابق نفسه.

ولذلك أشار الشعراء إلى أهمية تقليل الزيارة قال الشاعر مسلم بن الوليد[1]:-

أقلل زيارتك الصديق يراك كالثوب استجده

إن الصديق يملُّه ألا يزال يراك عنده

نكتفي بهذا القدر من الشواهد منعًا للإطالة، وندرك مما سبق أن رسائل الاستزارة، ووصف الأطعمة والمشروبات عكست الحالة الاقتصادية والاجتماعية للعصر، وما طرأ عليها من تغيير في العادات والتقاليد الاجتماعية والعلاقات الإخوانية، كذلك تعرفنا على موائد الطبقة الراقية والغنية، وما يدور في مجالسهم،والطبقة الكادحة وما يقدم على موائدهم. وتأثر الشعر بذلك، حيث تطورت موضوعاته إلى وصف للعلاقات الإنسانية الإخوانية، ووصف للموائد وللمجالس، وللمدعو وماله وما عليه من حقوق وواجبات الزيارة والالتزام بها.

* = *

(١) انظر ما ورد في عيون الأخبار لابن قتيبة الدنيوري ٣/ ٢٧.

النوع الثالث: رسائل دعوة للاستزارة ووصف للمجلس:

شهد العصر العباسي الانفتاح الفكري، والتأثر بالعادات والتقاليد الفارسية، فانتقلت مجالس الطرب والغناء واللهو الفارسية إلى العربية بحذافيرها، وكان للمجالس أماكن وأوقات،ولها مرتادوها ومقيموها من الطبقة المخملية ومن الطبقة العامة.

فنجد انتشار المجالس في القصور والبيوت والرياض والبساتين، والقاطول وأهم شيء يتوفر في المجلس قطب السرور وهو النبيذ فتعدد ذكر أسمائه وألوانه وشاربيه، وأصبح من يقدم الكؤوس من الغلمان، وحظيت القيان والجواري باللقاءات والمجالس الأدبية مع الخلفاء والوزراء وعلية القوم من كتاب وشعراء ورجال دولة[1]. وتبعًا لذلك نشطت الموضوعات الشعرية والنثرية التي تصور ما يدور في تلك المجالس، على سبيل المثال من الشواهد الشعرية نجد الشاعر العباسي عكاشة العمي يصف مجلس لهو بقوله[2]:-

سقيًا لمجلسنا الذي كنا به ... يوم الخميس جماعة أترابا

في غرفة مطرت سماوة سقفها ... بحيا النعيم من الكروم شرابا

إذ نحن سقناها شمولاً قرقفا ... تدع الصحيح بعقله مرتابا

حمراء مثل دم الغزال وتارة ... بعد المزاج تخالها زرياب

(١) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٠٢/١ وللاستزادة العلمية انظر ما ورد في المصدر نفسه: ١/ (١٣، ٢٥، ٤٦، ٤٧، ٨٣، ١٦٨) (٧٤/٣)، (٨٨/١٦) وعيون الأبناء في طبقات الأدباء لابن أبي أصيبعة ٤١٨/٣ وزهر الآداب وثمر الألباب الحصري القيرواني ١٩٦/١، ومحاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء: للراغب الأصبهاني ٦٦٨/٢.

(٢) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب الحصري القيرواني ٢/ ٤١٥، ٤٩٩، ٥٠٣.

من كف جارية كأن بنانها ... من فضة قد قمعت عنابا

تزداد حسنا كأسها من كفها ... ويطيب منها نشرها أحقابا

ويذكر بعض الظرفاء شروط المنادمة[1]: (شرط المنادمة والتغافل عن رد الجواب، وإدمان الرضا، واطراح ما مضى، وإحضار ما تيسر، وستر العيب، وحفظ الغيب) وقال شبيب بن شبة: (لم يبق من لذات الدنيا إلا أربعة: مجالسة الإخوان..)[2] كما رصد الحصري القيرواني[3] ألفاظ الكُتَّاب في استدعاء الشراب وصفات مجالس الأنس، وآلات اللهو وذكر الخمر.

نورد بعض النماذج على رسائل دعوة ووصف مجلس على سبيل المثال لا الحصر. ما كتبه علي بن خلف إلى أحد رؤسائه، يمزج في رسالته بين دعوة للاستزارة ووصف لمجلس رقت حواشيه وبسمت راحه عن حبيب كلآلئ من ذهب يقول في ذلك[4]:-

(قد انتظم لنا – أطال الله بقاء سيدي – مجلس رقت حواشيه وتبسمت راحه عن حبيب، كلآلئ على ذهب، وقامت فيه سوق السرور، لا يكسدها إلا تخلفه عن الحضور، فإن رأى أن يكمل جذلنا بإطلاع طلعته علينا، ويصدق ظننا بنقل قدمه إلينا، سرَّ وأبهج، وتمم من الإحسان ما أحدج، إن شاء الله تعالى).

وتتميز رسائل علي بن الخلف أنها تقوم على فن الوصف مقترنة بالدعوة مبتدئًا بالدعاء، ثم يعرج على وصف دقيق للبستان محدداً الفترة

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٤٩٥/٢.
(٢) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء: للراغب الأصبهاني ١/ ٦٨٤.
(٣) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب الحصري القيرواني ٢/ (٤١٥، ٤٩٩، ٥٠٣) وما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء للراغب الأصبهاني ٦٨٤/١ – ٦٩٦.
(٤) انظر ما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي ٩/ ١٥١.

الزمانية لانعقاد المجلس وما يحتويه من مناظر خلابة وما يحيط به من نباتات وأشجار وثمار وطيور نقتطف من رسالته قوله[1]:-

(كتبت أطال الله بقاء سيدي – وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني والطير في الأوكار، والأنداء تهبط كالتيار، والليل مشتمل على الصباح:... فقلت: هذا المراد الذي يحط به الرائد رحله، ويوفد إليه أهله، ويدعو إلى اختيار من يهب إلى السرور، ويساعد على الحضور، للمشاركة في التحلي ببهجته، والتمتّع بنضرته، فكان مولاي أوّل من جرى إليه ذكري، ووقع عليه طرف فكري؛ لأنه الساكن في فؤادي، الحال في كل رقادي، فإن رأى - أراه الله ما يقر العين- أن يكمل مسرتي بنقل قدمه إلي، وإطْلاع سعد طلعته علي: ليتمم محاسن ما وصفته، ويكمل الالتذاذ بما شرحته، فعل إن شاء الله تعالى).

وأمام الطبيعة تتفتح القريحة الأدبية لعلي بن خلف مستمدًا منها الخيال الفني؛ ليصور المجلس والمناظر الخلاّبة التي تبهر الأعين وتنعش النفوس، يقول في ذلك[2]:-

(هذا – أطال الله بقاء مولانا – يوم صفيق الظل، رقيق غلاله الظّلّ، قد ترفعت شمسه ببرج أنسه، وافترَّ جزلا عن مضاحك برقه، وترنم طربا بزمجر رعده، ووشت مدارج نسيمه، بأرج شميمه، وقام على منابر السرور يخطب ابنة الكَرْم لأبناء الكرام. وينادي بأعلى صوته: حيَّ على المدام، فقد وجب على كل موفقٍ لاجتناء ثمار السرور، والتحاف عطاف الحبور، أن يلبي دعوته، وينتهز فرصته، ويعوضه من شمسه الآفلة براحٍ لإظهار ما اختفى من شعاعها كافلة..).

وله في مثله يصف المجلس وما يدور فيه، ولا ينقصه إلا مقدم صديقه ليكتمل سروره، فيعكف على وصف مجلسه بصور متناهية في

(١) المصدر السابق نفسه ٩/ (١٥٣ – ١٥٤).

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ١٥١/٩ الرسالة طويلة ومنعًا للإطالة اكتفيت بذكر الشاهد.

الدقة مبينًا قواعده التي ارتكزت على الجمال الأخاذ الذي أنعش الأفئدة وعمّها السرور، مقرنًا ذلك بدعوة خاصة لصديقه مبينًا مكانته؛ فهو الذي يبهر القمر بطلعته، ويصدع الليل المتعكر، يقول في ذلك[1]:-

(هذا اليوم – أطال الله بقاء سيدي – يوم أعرس فيه الجو بالجارية البيضاء فخدرها، وحجبها بسجف الغمام وستّرها، واختال اختيال المعرّس في مُعرَّسه، بصندله وممّسكه ومورسه، واتخذ من ذهب البوارق نثارا، واستنطق من زُنّار الرواعد أو تارا، ودعا إلى حضور وليمته، والسرور بمسرته، فإن رأى أن يلبي طلب هذا اليوم الصفيق ويتمتع بعيشه الرفيق، فليطلع علينا طلعته التي تبهر القمر المزهر، وتصدِّع الليل المعتكر..).

ومن رسائل الاستزارة، ووصف المجلس، ما كتبه الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له يدعوه لحضور مأدبة تشرف على روضة ذات طبيعة غناء محددًا المكان والزمان.

يقول فيها[2]: "نحن في مأدبة لنا، تشرف على روضةٍ، تضاحك الشمس حسنًا، قد باتت السماء تكللها فهي شرقة بمائها، حالية بنوارها، فبادر إلينا لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض".

ومجالس اللهو والقصف لا تخلو من السمر والغناء والراح، فينشئ الكاتب رسالة يستدعي صديقه ليشاركه مجلس يحفه الأنس والطرب، من ذلك ما كتبه ابن المعتمد إلى أحد أصدقائه نقتطف منها قوله[3]:-

(١) انظر الرسالة كاملة المصدر السابق ١٥١/٩ اكتفيت بذكر الشاهد منعاً للتكرار.

(٢) انظر ما ورد في: فنون النثر في الأدب العباسي محمود عبد الرحيم صالح، ص١٠٥، دار جرير، عمان – الأردن: ط٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

(٣) انظر ما ورد في ديوان ابن المعتمد بن عباد ص٤١، ملك أشبيلية، تحقيق: أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية / ١٩٥١م، القاهرة – مصر.

أيها الصاحب الذي فارقت عيني ونفسي منه السنا والسناء
.
نحن في المجلس الذي يهب الراحة والمسمع والغنى والغناء
.
نتعاطى التي تنسي من اللذة والرقة والهوى والهواء
.

وتتشح رسائل الاستزارة ووصف المجلس بالبراعة الفنية وسهولة النظم، فيغمر الكاتب السرور، وهو في مجلس تدار فيه الكؤوس، حظي بمتطلبات المجلس من شرب وغناء وسمر، ولكنه خلا من صديقه؛ مما أحدث نقصًا، وفي ذلك كتب منصور إلى صديقه يقول في ذلك[1]:-

كتبتُ والكأس في عيناي مترعة وأحسن الناس يلهينا ويسقينا
.
ونحن في مجلسٍ حل السرور به خلوين من ثالثٍ حتى توافينا
.

والأجواء الشتوية تثير الشجون والمشاعر، فيستغل الكاتب ذلك في وصف المجلس، وما فيه من زجاجات خمر وكؤوس بعثت نشاطًا دعته إلى أن يدون رسالة استزارة لصديقه، حتى يحظى بمشاركته المجلس والأنس، وفي ذلك كتب الحسن بن سهل[2] إلى الحسن بن وهب، وقد اصطبح في يوم دجن لم يمطر:" أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده، كأنه قول كثير:

وإني وتهيامي بعزة بعد ما تخليت عما بيننا وتخلت
.
كالمترجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصبهاني ١ / ٦٤٤.
(٢) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٢/٥٠٠.

وما أصبحت أمنيتي إلا في لقائك، فليت حجاب النأي هتك بيني وبينك! رقعتي هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتحيفه، وبعثت نشاطًا حركني للكتاب، فرأيك في إمطاري سرورًا بسار خبرك، إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موفقًا إن شاء الله ".

وانظر إلى رسالة العطوي كيف استهل رسالته بوصف لحالة الجو الشتوي الذي يزودهم بالطاقة والنشوة، فيومهم يوم مطير، وعيشه نضير، وكأسه تدور، وقدره تفور، ومجلسه حوى بين جنباته الشعر والعلم فأنى لصاحبه تفويت ذلك وزمن التلهي قصير، يقول في ذلك[1]:-

يوم مطير وعيش نضير ... وكأس تدور وقدر تفور

وعثعث تأتي إذا جئتنا ... فتسمع منها غناء يصور

وعندي وعندك ما تشتهي ... يه شعر يمر وعلم يدور

وإذ كان هذا كما قد وصفت ... فإن التفرق خطب كبير

فقم نصطبح قبل فوت الزمان ... فان زمان التلهي قصير

وله رسالة أخرى أيضًا يصف فيها المجلس، وما يعج فيه من حالات الأنس والقصف، يقول في ذلك:-

يومنا طيب به حسن القصف ... وحث الأرطال والكاسات

ما ترى البرق كيف يلمع فيه ... ورشاشًا يبل في الساعات

(١) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠ / ٦٠.

ولـــدينا ظـــبي غريـــر ظريـــف قـــد غنينـــا بـــه عـــن القينـــات..

إن تخلفـــت بعـــد مـــا تصـــل ك الرقعـــة عنـــا فأنـــت في الأمـــوات

أما إبراهيم بن أبي محمد اليزيدي، فيدعو صديقه وابن أخيه محمد بن أبي محمد لزيارة مجلسه يصف فيها ما يدور فيه من لهو وشرب وغناء، نقتطف منها قوله[1]:-

يـــا أكـــرم النـــاس طـــرا وأكـــــــرم الفتيـــــــان

بـــــادر إلينـــــاطكيمـــــا تســـــقي ســـــلاف الـــــدنان

علـــــى غنـــــاء غـــــزال مهفهـــــــف فتـــــــان

ويدعو الحسن بن رجاء صديقه الحسين بن الضحاك إلى الشرب بعد إعلان الخليفة الواثق انقضاء شهر رمضان الكريم واصفاً مجلسه وما يضمه بين جنباته من جلسات الأنس والسمر والشرب والقيان المصريات، يقول في ذلك[2]:-

هززتـــ ك للصـــبوح وقـــد نهـــاني أمـــير المـــؤمنين عـــن الصـــيام

وعنـــدي مـــن قيـــان المصـــر عشـــر تطيـــب بهـــن عاتقـــة المـــدام

ومـــن أمشـــا لهن إذا انتشـــينا ترانـــا نجـــتني ثمـــر الغـــرام

(١) المصدر السابق نفسه: ١٦ / ٨٨.

(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٤/ ١٩٢.

كن أنت الجواب فليس شيء أحب إلي من حذف الكلام

وفي العصر الوسيط " عُرفت رسائل الاستزارة الشعرية- الإخوانيات- باسم (الشتويات)، وهي المراسلات التي يبعثها الشعراء في فصل الشتاء، وقد حوت أوصافاً جميلة للطبيعة ومباهجها، مثلما حوت وصفاً للمجالس التي كان يقيمها الأصدقاء فيما بينهم، واعتاد الشعراء استدعاء أصدقائهم إلى تلك المجالس، واصفين الطبيعة بسمائها وغيومها وثلوجها، وواصفين المجالس بآلاتها وشرابها وروادها".

وفيما يلي نورد أمثلة على ذلك: بعث الشاب الظريف إلى صديق له يستدعيه إلى مجلس أقيم في يوم غائم، والثلج غمر الأرض كأنه برادة من فضة، والشمس كأنها جارية تباع تسترق الطلعة بين الغيوم، والمجلس قد تمَّ حسنه وبهاؤه، وفيه الشراب الذي أقسم أن لا يكون رائقاً للجلاس لولا حضور هذا الصديق، يقول في ذلك[1]:-

يوم كاثف غيمه كأنه دون السماء دخان غيم أخضر

والطل مثل برادة من فضة منثورة في تربة من عنبر

والشمس من خلل السحاب كأنها أمة تعرض نفسها للمشتري

ولدي صرف مدامة مشمولة تلقى الظلام بوجه صبح مسفر

كأنها مما تحيك أقسمت أن لا تطيب لنا إذا لم تحضر

(١) انظر ما ورد في الشعراء في المشرق العربي في العصر الوسيط من سنة ٦٥٦هـ- ١٢١٣هـ، محمد شاكر الربيعي، ص١٤٦، دار الرضوان للنشر والتوزيع، مؤسسة دار الصادق الثقافية، عمّان- الأردن، ط١، ٢٠١٢م – ١٤٣٣هـ وللاستزادة العلمية انظر المرجع السابق نفسه ص١٤٧.

ومن مجالس الأنس (القاطول)، فوجوده في البحر يضفي مزيدًا من الجمال، وحين تجود السحائب المزيد بودقها وبوارقها ينشد الصديق صديقه زيارته مشترطًا عليه ألا يشرب إلا ما أحل الله، من ذلك رسالة عبدالله بن العباس الربيعي إلى محمد بن الحرث بن يشخير يقول فيها[1]:-

محمد قد جادت علينا بودقها ... سحائب مزن برقها يتهلل

ونحن من القاطول في شبه مربع ... له مسرح سهل المحلة مبقل

فمر فائزا تفديك نفسي يغنني ... أغن ظعن الحي الأولى كنت تسأل

ولا تسقني إلا حلالاً فإنني ... أعاف من الأشياء ما لا يحلل

وتتجلى البراعة الأدبية عند السري الموصلي في رسالته إلى أخ له يستدعيه، حيث استهل رسالته بالمدح، ثم يتدرج ليصور بعدسته الفكرية المناظر الخلابة، ومجلس يعج بالقصف والملاهي والعزف والمجون، ويحثه على الزيارة وانتهاز فرصة صفاء الجو ونقاوته، يقول في ذلك[2]:-

خلالك ما اختلّ الصديقُ ... وبشرك ما هبَّت رياحٌ مَوَاهِبُ سَحائبُ

وأنت شقيقُ الروحِ تُؤْثرُ وَصْلها ... إذا رَاعَها با لهَجْرِ خِلٌّ وصَاحِبُ

(١) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، ٨٣/٢٠.

(٢) انظر ما ورد في: زهر الآداب: الحصري القيرواني ٢/ ٤٩٧، ٤٩٨.

ونحن خلالَ القَصْفِ والعزف ... ثمارَ مَلاهٍ كلهنَّ أطَايبُ
نجتَنى
وعندي لك الرّيحان زيَن بساطُهُ ... بَزَهْر كما زانَتْ سماءً كَوَاكِبُ
وجَيْشٌ كما انجرَّتْ ذُيولُ غَلائِلٍ ... مُصَنْدَلةٍ تختالُ فيها المكاعِبُ
وقد أُطْلقَتْ فيه الشمائِل وانثنَتْ ... مُفَنّدَةً عن جانبها الْجَنائِبُ
وحافظة ماءَ الحياةِ لِفْتَيةٍ ... حياتهمُ أن تستلذَّ المشارِبُ
تسربلها أخفى اللباس وإنما ... يلفُّ بها أفواهُهُ والسَّبائبُ
على جسدٍ مثل الزَّبرجدِ لم تزل ... تشاكله في لونه وتناسبُ
إذا استودعت حُرّ اللُّجيْن سبلكا ... تصوب في أحشائها وهو ذائبُ
وفوق رؤوس القوم غيمٌ معلّقٌ ... من الندِّ لا يجري ولا هو ذاهب
بوارقه خمر المكؤوس ورَعْدُهُ ... أنامل بيض للطبول تلاعب
ولا عائق يثني عنانك عن هوىً ... رغى جانب منه وأومض جانبُ
فبادر، فإن اليوم صافٍ من القذى ... ويارُبّ يومٍ بادرته النوائب

وهنا يتجلى لنا بوضوح النشاط الشعري، ودمج موضوع خاص برسائل الاستزارة إلى جانب الوصف الدقيق.

نستخلص مما سبق أن مجالس اللهو والأنس تنوعت وتعددت على حسب مرتاديها، وكذلك بينت الأماكن التي يعقد فيها المجالس

كالقصور والبيوت والبساتين والرياض والقاطول، وحددت أيضًا وقت انعقاد المجلس في الصباح الباكر وفي الليل.

وفي فصل الشتاء كانوا يستغلون البيئة الشتوية من أمطار ورعد وبرق لانعقاد مجالسهم، متخذين من الخيال والوصف والدعاء وسيلة لإثارة مشاعر المدعو وتلبية الدعوة[1].

كما أن لكل مجلس عاداته وتقاليده التي يقام فيها الاحتفال والغناء والطرب ودق الطبول، وتتواجد القيان والجواري والغلمان؛ إما للمحاورات الأدبية أو لخدمة الجلساء وبعض المجالس، وهي نادرًا ما كانت تخلو من مجالس الشرب والسكر والمجون.

وأيضًا وضحت الحالة الاقتصادية لأصحاب المجالس فمنهم صاحب الجاه والغنى، ومنهم من لا يملك شروى نقير، فإن نفد النبيذ في مجلسه سأل صديقه الاستزادة منه.

وأخيرًا: شيوع الخمر، ومجالس الفساد في العصر العباسي يدل على التساهل وضعف الوازع الديني، وقد استطاعت الرسائل أن تصور حالات القصف والمجون الذي أدى إلى ضعف الدولة، ثم انهيارها وسحقها على يد الأعداء.

* = *

ثانيًا: أجوبة رقاع الاستزارة:

" تنبه الكتاب إلى أهمية أجوبة رقاع الاستزارة فأولوها الاهتمام والعناية.

ولرسائل الاستزارة صلة قوية بينها وبين أجوبتها؛ لأن الداعي إلى الاستزارة ينتظر من المدعو جوابًا شافيًا كافيًا لعدم تلبيته دعوة الاستزارة، وإلا تحولت العلاقة القوية إلى ضعف، والصلة إلى جفاء، والبر إلى عقوق بين الإخوان، وقد بين القلقشندي في كتابه صبح

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني ١ / (٢٣٦ – ٢٣٨)، ٩٢٠/٤.

الأعشى[1] الطريقة المتبعة عند الكتاب في كتابة أجوبة الاستزارة فقال: (لا يخلو المستزار من الإجابة إلى الحضور، أو التثاقل عنه، فإن حضر على الفور، فلا جواب لما نفذ إليه، وإن وعد الحضور وتلوم ليقضى شغلًا ويحضر، فينبغي أن يبني الجواب على سروره بما دعي إليه، وحسن موقعه منه، وأنّ تلوُّمه للعائق الذي قطعه عن أن يكون جواباً عما ورد عليه، وأن حضوره يشفع رقعته، وإن أيس منه الحضور، وجب أن يبني الجواب على ما يمهد عذره، ويقدر في نفس مستزيره أنه لم يتأخر عن المساعدة على الأنس إلا لقواطع صدّت عنه، يعلم المعتذر إليه صحتها لينحسر ما بينهما من المودة، فإنّ كثيرًا ما تتفاسد الخلان من مثل هذه الأحوال).

وتبعًا لذلك تنوعت أجوبة رسائل الاستزارة تبعًا للظرف المسبب، وبعد الرجوع إلى النصوص التي وقفنا عليها استطعنا أن نتوصل إلى أربعة أجوبة للاستزارة وهي: أجوبة الاستزارة بسبب عائق لعلة حالت بين المدعو والكاتب، وأجوبة استزارة بسبب الانشغال بشيء ما كشغل طارئ، أجوبة استزارة بسبب سوء الأحوال الجوية الشتوية – (فالوحل والمطر أكبر عائق بين المدعو والمدعو إليه) وأخيرًا أجوبة استزارة مفتوحة – لم يتضح سبب العائق أحيانًا.

أولاً: أجوبة الاستزارة بسبب علة:

هذا النوع من الأجوبة يحاول الكاتب أن يبين ما أصابه من علة منعته من تلبية الدعوة مشيدًا بكرم وحسن خلق الداعي.

نورد بعض النماذج على ذلك:-

(١) انظر ما ورد في: صبح الأعشى القلقشندي ٩/ ١٥٤.

رسالة ابن المعتز إلى عبيد الله بن وهب وزير المعتمد[1]، حيث يشرح له العلة التي منعته من الزيارة مكثرًا من التودد والدعاء له استمالة لرضاه، يقول في ذلك: (أخرتني العلة عن الوزير – أعزَّه الله – فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني، ويعمر ما أخلته العوائق مني، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركةً على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحبُّ ويُحبَّ له، ويقبل ما توسَّل به إلى مرضاته، ويضاعف الإحسان إليه، على الإحسان منه، ويمتعه بصحة النعمة ولباس العافية، ولا يريه في مسرَّة نقْصًا، ولا يقطع عنه مزيدًا، ويجعلني من كل سوءٍ فداء، ويصرف عيون الغير عنه وعن حظِّي منه).

ولابن المعتز رسائل شعرية ونثرية ومبادلات بينه وبين قينة يروي لنا ما حدث بقوله[2]:-

" كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة إلى قينة فأجابت، فلما مرت في الطريق وجدت فيه حارسًا فرجعت، فأرسلت أعاتبها فكتبت إلي: (لم أتخلف عن المسير إلى سيدي في عشيتي أمس لأرى وجهه المبارك وأجيب دعاءه، إلا لعلة قد عرفتها فلانة، ثم خفتُ أن يسبق إلى قلبه الطاهر أني قد تخلفت بغير عذر، فأحببت أن تقرأ عذري بخطي، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شيء أسرّ إلي من رؤيتك، والجلوس بين يديك، وأنت يا مولاي جاهي وسندي، ولا فقدت قربك، ولك رأيك في بسط العذر موفقاً، وكتبت في أسفل الكتاب:

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب. الحصري القيرواني ٢٢٦/١، وجمهرة رسائل العرب. أحمد زكي صفوت ٣٥٠/٤، وتاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني. شوقي ضيف ص٥٦٩.
وللاستزادة العلمية انظر رسالة بشار إلى امرأة من أهل البصرة الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٨/٣.

(٢) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٤/ ٩٤٨.

أليس من الحرمان حظٌّ سلبته وأحوجني فيه البلاءُ إلى العذر

فصبراً فما هذا بأوَّل حادثٍ رمتني به الأقدار من حيث لا أدري

فأجاب ابن المعتز بقبول عذرها مبينًا علو قدرها، ومكانتها في نفسه، يقول في ذلك[1]:-

(كيف أرد عذر من لا تتسلط التهمة عليه، ولا تهتدي الموْجدة إليه! وكيف أعلمه قبول المعاذير، ولست آمن بعض خواطره أن تشير إلى انتهاز فرصة فيما دعا إلى الفرقة، وإن سلمتُ من ذلك فمن يجيرني من توكله على تقديم العذر، ووقوعه مواقع التصديق في كل وقت، فتَّتصل أيام الشغل والعِلة، وتنقضي أيامُ الفراغ والصحة، فتطولُ مدةُ الغيبة، وتدرُس آثار المودّة، وكتبت في آخر الرقعة:

إذا غِبت لم تعرف مكاني لذةٌ ولم يلق نفسي لَهْوها وسُرُورها

وحدثتُ سمعًا واهنًا غير ممسك لقولي وعينًا لا يراني ضميرُها)

* = *

النوع الثاني:

أجوبة استزارة بسبب عائق طارئ، كشغل ما.

وهذا النوع من الأجوبة يوضح فيها الكاتب تشوقه لرؤية صديقه وتلبيته الدعوة، ولكن الشغل حال بينهما مبينًا علو منزلته.

نورد بعض النماذج على ذلك رسالة بديع الزمان الهمذاني لأبي القاسم الكرجي، حيث يظهر له التقدير، ويعتذر عما لحقه من

(١) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٤/ ٩٤٨.

تقصير، وإنابة القلم لزيارته عوضًا عنه متعللًا بعوائق عدة، يقول في ذلك[1]:-

(يعز عليَّ – أطال الله بقاء الشيخ الرئيس – أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي، دون وصولي، ويرد شرعة الأنس به كتابي، قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق جمة:

وعليَّ أن أسعى وليس عليّ إدراك النجاح.

وقد حضرت داره وقبلت جداره، وما بي حب الجدران ولكن شغفًا بالقطان، ولا عشق الحيطان، ولكن شوقًا إلى السكان، وحين عدت العوادي عنه، أمليت ضمير الشوق على لسان القلم، معتذرًا إلى الشيخ على الحقيقة عن تقصير وقع، وفتور في الخدمة عرض، ولكني أقول:

إنيكن تركي لقصدك ذنبًا ... كفى ألا أراك عقابا

وكتب المهلبي إلى صديق دعاه، فلم يمكنه الحضور مبينًا أن السبب شغيل أعاقه عن زيارته، يقول في ذلك[2]:-

لولا شغيل عاقني ... بالقرب حاول عن مزارك

لأتيت نحوك مسرعاً ... ولصرت من غلمان دارك

فبحق طرفك وافتنا ... نك والمهذب من نجارك

(١) انظر ما ورد في: زهر الآداب. الحصري القيرواني ٤/ ٨٦٣. ومنعًا للإطالة ورغبة في الاستزادة العلمية انظر ما ورد في الشعر في المشرق العربي في العصر الوسيط. محمد شاكر الربيعي ص١٤٩. المراسلات الشعرية بين أبي الحسين الجزار والسراج المحار.

(٢) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء لأبي القاسم الأصبهاني ٦٤٥/١.

الا مننـــــت وقلـــــت لـــــي إنـــــي وهبتـــــك لاعتـــــذارك

وكتب ابن طباطبا[1]:-

ابسـطوا العـذر في التـأخر عنكم شـغل الحلـي أهلـه أن يعـارا

* = *

النـوع الثالـث:

أجوبة استزارة بسبب سوء الأحوال الجوية الشتوية كالمطر والوحل. وفي هذا النوع من الرسائل يكشف الكاتب الستار عن مشاعره المتدفقة بحب لقاء الصديق وتلبية دعوة الاستزارة، ولكن المطر والوحل يعد كل منهما عائق خطير يحول دون اللقاء، نورد نماذجًا على ذلك[2] رسالة العنتري إلى أحد الوزراء استدعاء لزيارته:-

قـــل للـــوزير أدام الله نعمتـــه في دولة أمرها في الحضر والبادي

بعثت في طلبي والغيث منسكب والوحل قد كف سير الرائح الغادي

وقد رددت الذي نفنت في طلبي فابعث إلي بمركوب ولبّاد

(١) المصدر السابق نفسه وانظر رسائل تمَّ تبادلها بين ابن المعتز وخزامى جارية الضبط المغني. الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٣٨/٩.

(٢) انظر ما ورد في: عيون الأنباء وطبقات الأطباء. لابن أبي أصيبعة ٣٢٢/٢.

وممن تعلل بسوء الأحوال الجوية الممطرة محمد بن عبدالله بن أحمد بن يوسف كتب رسالة اعتذار عن زيارة إلى ابن خرداذبة بسبب هطول الأمطار بغزارة على سرّ من رأى، قال في ذلك[1]:-

لعمري لئن سر الحيا في مواطن . لقد ساءني أن عاقني عن لقائكا .

وقد كنت مشغوفًا بذاك أريده . فحال قضاء الله من دون ذلكا .

فصف لي فدتك النفس أمرًا يسرني . وأحمد فيه الله من حسن حلكا .

وحال أخينا أحسن الله صنيعه . وحال فتانا منعما في كتابكا .

* = *

النوع الرابع:

أجوبة استزارة مفتوحة.

هذا النوع من الرسائل قد يحمل ردًا على طلب استزارة من صديق كرسالة أحد الكتّاب إلى صديق له[2]:- (إن رأيت أن تحدد لي ميعادًا لزيارتك، أتقوته إلى وقت رؤيتك، ويؤنسني إلى حين لقائك، فعلت إن شاء الله).

فأجابه صديقه: (أخاف أن أعدك وعدًا يعترض دون الوفاء به، ما لا أقدر على دفعه، فتكون الحسرة أعظم من الفرقة).

(١) انظر ما ورد في: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي ٢٤٩/٢ وللاستزادة العلمية انظر ما ورد من رسائل في الأغاني: الأصبهاني ١٣ / ٢٥.

(٢) انظر ما ورد في: زهر الآداب. الحصري القيرواني، ٤ / ١١٤٦.

ففي الرسالة الأولى كشف الصديق عن مشاعره المتأججة التي جعلته يطلب زيارة ولقاء الصديق، ولكن الصديق يجيبه بعدم القدرة على تحديد موعد للقاء خشية عدم الوفاء به، فيتحول الود إلى كره، واللقاء إلى فرقة والفرحة إلى حسرة، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على ما يتمتع به الصديق صاحب الرسالة الثانية من حسن خلق بالإيفاء بالوعد، واحترام أهله، والرسالة الأولى ما يتمتع به الصديق من مشاعر تفيض رقة وعذوبة وصدق محبة تجاه صديقه.

ومن ذلك أيضًا ما كتبه الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات يعتذر عن عدم تلبيته دعوة الاستزارة، يروي الجاحظ ما حدث بقوله[1]:-

تشاغلت مع الحسن بن وهب أخي سليمان بن وهب بشرب النبيذ أيامًا، فطلبني محمد بن عبد الملك لمؤانسته، فأخبر باتصال شغلي مع الحسن ابن وهب، فتنكر لي، وتلون علىّ، فكتب إليه رقعة يشرح فيها ما حدث مكثرًا من الشواهد الشعرية والنثرية استمالة لقلب محمد بن عبد الملك ونيل رضاه، يقول في ذلك[2]: "أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة، فقد خفت - أيدك الله- أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء، وبعد، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امـــرأً أمســـى وأصـــبح ســـالمًا مـن النـاس إلا مـا جنـى لسـعيد

. .

(١) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب. الحصري القيرواني ٢ / ٥٤١، وجمهرة رسائل العرب أحمد زكي صفوت ٤ / ٤٣.

(٢) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٥٤١/٢ وجمهرة رسائل العرب. أحمد زكي صفوت ٤/ ٤٣.

وقال الآخر:

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

.

فإن كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم أجترئ إلا لأنَّ دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال، الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة، ولذلك قال عُيينةُ بن حِصنٍ بن حُذيفة لعثمان رحمه الله: (عمر كان خيرًا لي منك، أرهبني فاتقاني، وأعطاني فأغناني).

فإن كنت لا تهب عقابي – أيدك الله- لحرمة، فهبه لأياديك عندي، فإن النّعمة تشفع في النقمة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب المصِّر، حتى إذا صرت إلى من هفوته بكر، وذنبه نسيانُ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك، والإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة.

واعلم – أيدك الله- أن شين غضبك عليّ كزين صفحك عنِّي، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك، واعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريمٍ، والسلام".

وكتب الحسن بن وهب إلى أحد الأمراء يعتذر عن زيارته مكثراً من مدحه لعله يقبل عذره، ويجود بالصفح، والعفو يقول في ذلك[1]:-

(وصل كتاب الأمير أيده الله وفمي طاعم ويدي عاملة، ولذلك تأخر الجواب قليلًا، وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم وإساءته، وما استوجب ذنبًا استحق به دمًا، لأنه إذا أشمس حكى حسنك وضياءك، وإن أمطر حكى جودك وسخاءك، وإن غام أشبه ظلَّك وفناءك، وسؤال الأمير عني نعمة من نعم الله عز وجل أُعفِّي بها آثار الزمان السيئ

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٢ / ٥٠٠.

عندي، وأنا كما يُحبُّ الأمير صرف اللّه الحوادث عنه، وعن حظِّى منه).

ومنه أيضًا رسالة فضل الشاعرة إلى أبي يوسف بن الدقاق الضرير وأبي منصور الباخرزي؛ حيث زارا فضل الشاعرة، فحجبا عنها، وانصرفا ثم علمت بأمر مجيئهما وانصرافهما؛ فكرهت ذلك وغمها، فكتبت توضح ألمها وشدة حزنها لوقوعها في زلة، وتطلب العفو والصفح، تقول في ذلك تعتذر لهما[1]:

وما كنت أخشى أن ترو لي زلة ... ولكن أمر اللّه ما عنه مذهب

أعوذ بحسن الصفح منكم وقبلنا ... بصفح وعفو ما تعوذ مذنب

فكتب إليها منصور الباخرزي مبينًا قبول العذر، فمن لا يقبل العذر يقع في الذنب، يقول في ذلك:

لئن أهديت عتباك لي ولإخوتي ... فمثلك يا فضل الفضائل يعتب

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه ... وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

وكتب ابن المعتز[2] إلى بعض الوزراء يعتذر عن زيارة، ويعقد مقارنة بينه وبين الحاسد والواشي الذي يصطاد في الماء العكر، يقول في ذلك[3]:-

(ما زال الحاسد لنا عليك أيها الوزير ينصب الحبائل، ويطلب الغوائل، حتى انتهز فرصته، وأبلغك تشنيعًا زخرفه، وكذبًا زوَّره،

(١) انظر ما ورد في الأغاني: الأصبهاني ١١٧/٢٠.

(٢) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٩٤٨/٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، وانظر للاستزادة العلمية رسالة إبراهيم بن العباس الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٢/٧ ورسالة أبو الشبل المصدر نفسه ١٣ / ٢٥.

وكيف الاحتراس ممن يحضر وأغيبُ، ويقول وأمسِكُ؟ مرتصدًا لا يغفل، وماكرًا لا يفتر؛وربما استنصح الغاش، وصدق الكاذب؛ والحظوة لا تدركُ بالحيلة، ولا يجري أكثرها على حسب السَّبب والوسيلة).

فأجابه الوزير[1] بقبول العذر مبينًا له السبب: (حصول الثقة بك - أعزَّك اللّه- تغني عن حضورك، وصدق حالتك، يحتجُّ عنك، وما تقرر عندنا من نيتك وطويتك يُغني عن اعتذارك).

ومن رسائل الاعتذار الشعري ما كتبه محمد بن الفضل السلولي إلى حماد عجرد يعتذر عن زيارته[2]:

أبا عمر اغفرها هديت فإنني ... قد أذنبت ذنبًا مخطئًا غير عامد

فلا تجد فيه على فإنني ... أقر بإجرامي ولست بعائد

وهبه لنا تفديك نفسي فإنني ... أرى نعمه أن كنت لست بواجد

وعد منك بالفضل الذي أنت أهله ... فإنك ذو فضل طريف وتالد

فأجابه حماد:

محمد يا أبا الفضل ذا المحامد ... ويا بهجة النادي وزين المشاهد

وحقك ما أذنبت منذ عرفتني ... على خطأ يوما ولا عمد عامد

ولو كان ما ألفيتني متسرعا ... إليك به يومًا تسرع واجد

(١) المصدر السابق نفسه، وانظر للاستزادة العلمية رسالة إبراهيم بن العباس الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٧ /٢٢ ورسالة أبو الشبل المصدر نفسه ١٣ / ٢٥.

(٢) انظر ما ورد في الأغاني: الأصبهاني ٧٧/١٣.

ولـوكـانذو فضـل يسـمى لفضـله بغـيرا سمـه سميـت أم القلائـد

وبعث إليه برسالة شعرية أخرى يبين فيها قبوله العذر، وكتمه الغيظ، يقول فيها[1]:

قد غفرنا الذنب يا ابن الفضل والذنب عظيم.
ومسيء أنت يا ابن الفضل في ذاك مليم.
حين تخشاني على الذنب كما يخشى اللئيم.
ليس لي أن كان ما خفت من الأمر حريم.
أنا والله ولا أفخر للغيظ كظوم.
ولأصحابي ولا ريبة بر ورحيم.
وبما يرضيهم ويرضيني عليم.

وقد يدعو الكاتب صديقه لاستزارته، كما فعل العطوي، فيلبي الصديق دعوة الاستزارة مشترطًا المبيت؛ ليحظى بمزيد من الأنس والمتعة، من ذلك ما كتبه أحد الكتاب إلى العطوي، قال في ذلك[2]:

أنـا في أثـر رقعـتي فـاعلمن ذا ك علـى أنـني مـن البيـات

فـافهم الشـرط بيننـا لا تقـل لـي قـد تثاقلـت فانصـرف بحيـاتي

لا لسـرطكـن لأمتـع نفسـي بحـديث الظـبي الغريـر المـواتي

ومنه أيضًا ما دار بين إبراهيم بن المدبر وعريب تعتذر عن المجيء، وتخبر إبراهيم بمن ينوب عنها في الزيارة (بدعة وعفة) تقول في ذلك[3]:-

(١) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٧٨/١٣.
(٢) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠ / ٦١، وانظر رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي القاسم الكرخي يعتذر عن زيارته (زهر الآداب وثمر الألباب) الحصري القيرواني ٣ / ٨٦٣ وأيضاً ما ورد في الأغاني ٢٠ / ٤٣.
(٣) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٢٥/١٩.

إذا زارته بدعة وتحفة، وأخرجتا إليه رقعة من عريب فقرأها (بنفسي أنت وسمعي وبصري وكل ذاك لك، أصبح يومنا هذا طيبًا طيب الله عيشك، قد احتجبت سماؤه ورق هواؤه، وتكامل صفاؤه، فكأنه أنت في رقة شمائلك وطيب محضرك ومخبرك، لا فقدت ذلك أبدًا منك ولم يصادف حسنه وطيبه نشاطًا، ولا طربا لأمور صدتني عن ذلك أكره تنغيص ما أشتهيه لك من السرور بنشرها، وقد بعثت إليك ببدعة وتحفة؛ ليؤنساك، وتسرُّبهما، سرّك الله وسرّني بك).

فكتب إليها إبراهيم ردًا على رسالتها السابقة يبين فيها أن السرور لا يحضر إلا بتواجدها، يقول في ذلك[1]:-

كيف السرور وأنت نازحة ... عني وكيف يسوغ لي الطرب

إن غبت غاب العيش وانقطعت ... أسبابه وألحت الكرب)

وأنفذ إليها الجواب، فلم يلبث أن جاءت، فبادر إليها، وتلقاها حافيًا؛ حتى جاء بها على حمار مصري كان تحتها إلى صدر مجلسه يطأ الحمار على بساطه، وما عليه حتى أخذ بركابها، وأنزلها في مجلسه، وجلس بين يديها ثم قال:

ألا رب يوم قصر الله طوله ... بقرب عريب حبذا هو من قرب

بها تحسن الدنيا وينعم عيشها ... وتجتمع السراء للعين والقلب

* = *

(١) المصدر السابق نفسه.

ثانيًا: رسائل خاصة برفض الزيارة:

العلاقات الإنسانية تتقلب ما بين حُب وكره ووصل وهجر بسبب موقف ما، فيعتري المشاعر أحاسيسَ مضادة، فبالأمس كان الحب يعمره، أما اليوم فالكره شارته، بالأمس كان الوصل سمته، وتحول اليوم إلى هجر وقطيعة فالقلوب والمشاعر لا تتشابه ولا تتبادل، فقد يغفر الصديق زلة صديقه، ولكن الطرف الآخر يوغر صدرٌ بالضغينة، فمن ذلك قال أبو الفياض:[1] وكان بين بعض بني عمنا وبين أبي شراعة وحشة، ثم صالحوه ودعوه إلى طعامهم فأبى، وقال: "أمثلي يخرج من صرم إلى طعم ومن يشتيهه إلى وليمة ومالي ولكم إلا مثل قول المتلمس:

فإن تقبلوا بالود نقبل بمثله ... وإلا فإنا نحن آبى وأشرس

وقال فيهم:

إذا حضر الغداء فغير مغن ... ويغني حين يستجري العوالي

وأبقوني فلست بمسكين ... لصاحب ثروة أخرى الليالي

ولا بممسح المشرين كما ... أمسح من طعامهم سبالي

أنا ابن العنبرية آزرتني ... أزار المكرمات إزار حالي

فإن يكن الغنى مجدًا فإني ... سأدعو الله بالرزق الحلال

(١) الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠/ ٤٢.

والأبيات تعبر عن الموقف الصارم السلبي الذي اتخذه الشاعر في رفض الدعوة، والعودة إلى صحبتهم، واعتزازه بنسبه وشرفه، وقناعته بالرزق الحلال.

ومن ذلك أيضًا ما كتبه الخليفة المعتصم إلى عبدالله بن طاهر يحذره من استجابة دعوته لاستزارته، يقول في ذلك[1]:-

"عافانا الله وإياك، قد كانت في قلبي منك هنات غفرها الاقتدار، وبقيت حزازات أخاف منها عليك عند نظري إليك، فإن أتاك ألف كتاب أستقدمك فيه فلا تقدم، وحسبك معرفة بما أنا منطوٍ لك عليه إطلاعي إياك على ما في ضميري منك، والسلام".

نستنتج مما سبق أن رسائل الاستزارة لم تلب جميع الدعوات؛ إما لعذر - علة أو شغل طارئ وسبق أن أشرنا إليه أو سوء طقس شتوي- أو لسبب آخر، أو ترفض الدعوة رفضًا مطلقًا، وهذا النوع من الرسائل يكشف جوانب مهمة في شخصية المدعو، والمدعو إليه، وكيف اعترت العلاقات الإنسانية الأخوية الوهن والضعف تارة، والإباء ورفض مجالس اللهو والفسق تارة أخرى، وهذا يوصلنا إلى أن مجتمع الأدباء لم يكن كله مجتمعًا يسوده الفسق والفجور والضعف الديني، وإن غلب على مجالس اللهو والأنس ذلك.

ومنه أيضًا ما كتبه ابن مكرم يدعو صديقه أبا العيناء لزيارته، يقول في ذلك[2]:

"عندنا سكباج يعرف المجنون، وحديث يطرب المحزون، وإخوانك الملحدون، فلا تعلوا علي وائتون).

فيرد عليه أبو العيناء ردًا جافًا قاسيًا مستعينًا بمعين القرآن الكريم كرد حاسم للدعوة، يقول في ذلك:-

(١) زهر الآداب وثمر الألباب الحصري، ٨٤١/٣.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الاصبهاني ٦٤٣/١.

"اخسؤوا فيها ولا تكلمون".

ومن رسائل رفض الزيارة التي تستوقفنا لندرك أثر الخمر على الشباب والمجتمع؛ ما حدث بين حمدان بن أبان وابنه أبان. الذي لزم البساتين وترك دخول البصرة جملة كتب إلى والده رسالة شعرية يصف فيها حالته المادية المتردية، ومجلسه الذي لا يستطيع مفارقته يقول في ذلك[1]:

يا أبي لا ترث لي من غيبتي ... أنا في خيرٍ و لهوٍ ودعةْ

صرتُ من حبس دنا مطلقا ... ومن الضّيق إلى سعةْ

بيتُ خيش ونبيذ سائغ ... وحيال الباب مني مشرعةْ

ومعي في كل يومٍ مُسمِعٌ ... حاذقٌ يُطرِبُني أو مْسمعهْ

ونداميَ كمصابيح الدُّجى ... كلّهم يأخذ كأسًا مترعةْ

لا يبالي مَنْ لحا في شربها ... أبدًا حتى يوارى مصرعهْ

وسخولٌ خمسةٌ أو ستةٌ ... فإذا قلُّوا فعندي أربعةْ

(١) انظر: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق للصولي. ص٦٣.
والمناسبة: كان حمدان بن أبان بن عبد الميد موسرًا، وكان ابنه أبان بن حمدان ظريفًا ماجنًا يدمن الشراب ويصحب الخلعاء، فقال له أبوه: يا بني قد افتضحت في البلد بأفعالك هذه المشهورة، فلو غمضتها وسترت ما يظهر منها واستعملت ذلك في البساتين كان أخفى وأستر، فلزم البساتين وترك دخول البصرة جملة، وأقام بناحية المعلى، فكتب أبوه حمدان يذكر شوقه إليه وشفقته عليه من البستان ويدعوه للزيارة فكتب أبان الرسالة السابقة.

وخـــوابٍ هـــادرات هـــدرها ودســـاتيجُ مـــلأى مترعـــةْ
.
ومغـــنٍّ غَـــرِدٍ يُطـــربني فـــإذا شـــئتُ تغنيـــتُ معـــهْ
.

وما إن وصلت الرسالة والده حتى هزت مشاعره فكتب إلى ابنه:

"أنشدتك الله يا بني ألا تدخل البصرة وهذه حالك، فإن احتجت إلينا لحقنا بك".

وقد يقع الكاتب في شراك الحب، ولكنه حب من طرف واحد، إذ مال الطرف الآخر إلى شخص غيره، ولكنه سرعان ما يعود إليه، فعندئذ يقابله بالرفض المطلق، وهذا ما حدث مع العباس بن الأحنف الذي كان يهوى فوز، وهي كانت تميل إلى بعض أولاد الجند، وبلغ ذلك العباس، فتركها، ولم ترض هي بالبديل بعد ذلك، فعادت إلى العباس، وكتبت إليه تعاتبه في جفائه، فكتب إليها[1]:

كتبـت تلـوم وتسـتريب زيـارتي وتقول لست لنا كعهد العاهد
.
فأجبتهـا ودمـوع عـيني جمـة تجري على الخدين غير جوامد
.
يـا فـوز لم أهجـركم لملالـة مـني ولا لمقـال واش حاسـد
.

ومن رسائل رفض الاستزارة أيضًا رسالة سليمان بن علي إلى الخليل بن أحمد يستدعيه إلى الخروج إليه، وبعث إليه بمالٍ كثير، فما كان من الخليل إلا أن رده، وأرسل له رسالة يبين له عزة نفسه وغناه، وأن المال ثروة لا تدوم، قال في ذلك[2]:-

(١) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٣٧/١٥.
(٢) انظر ما ورد في الأغاني: أبو فرج الأصبهاني ٩٥٦/٤.

أبلغ سليمان أني عنه في سعة ... وفي غنى غير أني لست ذا مال

ينجو بنفسي أني لا أرى أحدًا ... يحوب هزلًا ولا يبقى على حال

والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس والمال

والمال يغشى أناسًا لا خلاق لهم ... كالسَّيل يغشى أصول الدندن البالى

كل امرئ لسبيل الموت مرتهن ... فاعمله لنفسك إني شاغل بالى

ومنه أيضًا قال الفضل بن العباس بن المأمون[1] زارتني عريب يومًا ومعها عدد من جواريها فوافتنا ونحن على شرابنا فتحادثنا ساعة وسألتها أن تقيم عندي، فأبت، وقالت: قد دعاني جماعة من إخواني من أهل الأدب والظرف، وهم مجتمعون في جزيرة المؤيد فيهم إبراهيم بن المدبر وسعيد بن حميد ويحي بن عيسى من منارة، وقد عزمت على المسير إليهم، فحلفت عليها، فأقامت عندنا، ودعت بدواة وقرطاس، فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، وكتبت بعد ذلك في سطر واحد ثلاث كلمات لم تزد عليها: أردت، لولا، لعلي. فأخذ إبراهيم بن المدبر الرقعة، فكتب تحت أردت: ليت، وتحت لولا: ماذا، وتحت لعلي: أرجو، ووجهوا بالرقعة، فصفقت، ونعرت، وشربت رطلًا، وقالت لنا: أترك هؤلاء وأقعد عندكم إذًا تركني الله من يديه ولكني أخلف عندكم من جواري من يكفيكم وأقوم إليهم، ففعلت ذلك..

نستخلص مما سبق أن رسائل الاستزارة تنوعت، وتلون محتواها تبعًا للمناسبة، كما أن المجالس حوت مجالس استزارة تجمع العلم

(١) المصدر السابق نفسه.

والأدب والسمر، وتخلو من الفسق والفجور، ومجالس أخرى لا يقوم المجلس إلا على قطب السرور ومحاوره من غلمان وقيان وجاريات وندماء، كما أثبتت الأسلوب الحضاري الذي يتمتع به الكاتب في أسلوب كتابة أجوبة اعتذار عن زيارة بسبب مرض أو انشغال بعمل ما أو لسبب ما، كما كشفت أن بعض القلوب لا تشفيها دعوات الاستزارة، لذلك كانت تجابه بالرفض المطلق، وهذا أعطى لمحة عما ما كان يدور في المجتمع في تلك العصور السالفة.

المبحث الثانـي

ويشمل دراسة :-

أولاً :ألفاظ الرسائل ودلالتها .

ثانيًا :البناء التركيبي للرسائل .

ثالثًا :المحسنات البديعية وتشمل :-

أ- الجناس. ب- السجع ج- الطباق. د- المقابلة.
هـ- الاقتباس. و- التضمين.

رابعاً :دراسة الصور الفنية وتشمل :-

أ- التشبيه. ب- الاستعارة. ج- الكناية.

أولاً: ألفاظ الرسائل ودلالتها:-

مصمم الأزياء الناجح يبرع في اختيار الألوان والأقمشة المناسبة لكل مناسبة، كذلك الحال مع الكاتب الناجح يتمتع بموهبة فنية في اختيار الألفاظ المناسبة للمعنى؛ فإن فشل في اختيار اللفظة عد ذلك عيبًا عليه، واتهم بالضعف والركاكة، أو المبالغة في رصف الألفاظ وتنسيقها؛ بحيث تطغى فتسبب السأم والضجر[1]، (فدور الكُتاب يأتي في دقة اختيار اللفظة المناسبة والمعنى الملائم لها..) (فالأديب الناجح هو الذي يساعده قاموسه اللغوي على دقة المنطق والدلالة المسددة والتوصيل الإيجابي)[2]. لذلك نجد الجاحظ يبين للكتاب أهمية اختيار اللفظ والمعنى المناسب بقوله:[3](وليس الكاتب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو، ويحطه من غريب الإعراب ووحشي الكلام) وقال أيضًا:[4](وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، فإذا كان المعنى

(١) انظر ما ورد في: أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد بدوي، ص٤٥٢، ط، نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة عام (١٩٩٦م).

(٢) انظر ما ورد في: النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته، أحمد زكي، ص١٤٩، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان ط٢، ١٩٨١م وللاستزادة أنظر ما ورد في كتاب إحكام صنيعة الكلام، محمد الكلاعي الأشبيلي، تحقيق محمد الداية ص٢٤٣، ط. د.ت، عالم الكتب، بيروت.

(٣) انظر ما ورد في الحيوان: الجاحظ، ٩٠/١، دار إحياء التراث العربي المجمع العلمي العربي الإسلامي، منشورات محمد الداية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

(٤) انظر ما ورد في البيان والتبيين: الجاحظ، ٦٠/١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة/ ط٣، د. ت.
وللاستزادة انظر على سبيل المثال ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب للحصري٧٤٣/٣، ٨٢٤/٣: دار الجيل بيروت مكتبة المحتسب- عمان، مكتبة المحتسب- عمان. ط٤، ١٩٧٢م

شريفًا واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع بعيدًا عن الاستكراه.. صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة).

ندرك مما سبق "أن الألفاظ تكتسب قيمتها من خلال وجودها في النص وجودًا ذا أثر، ووضوح الفكرة ودقتها تقوم على دقة اللغة، ووضوح دلالاتها.. [(١)]"فاللفظ جسد روحه المعنى، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته.."[(٢)] و(تخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام واستوائه)[(٣)].

وما بين أيدينا من نصوص أدبية على مختلف الأزمنة تستوجب دراسة المعاجم اللفظية، والتي بناءً عليها قمنا بتصنيف أنواع رسائل الاستزارة إلى ثلاثة أصناف: رسائل دعوة للزيارة، رسائل دعوة وتصف الطعام والشراب، رسائل دعوة وتصف المجلس،وكل صنف كان يمثل (الظاهرة اللغوية التي تتركب أساسًا من عمليتين متواليتين في الزمن، ومتطابقتين في الوظيفة، وهما: اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة، ثم تركيبه لها تركيبًا يقتضي قوانين النحو، وتسمح ببعضه الآخر سبل التصرف عند الاستعمال، وإذا بأدبية النص تتحدد بأنها ائتلاف بين العمليتين على نمط مخصوص..)[(٤)].

وبالرجوع إلى نصوص الرسائل نجد أن الموضوع يحدد لفظًا بعينه كرسائل دعوة للزيارة التي وردت فيها لفظة (سرور) في كل رسالة،

(١) انظر ما ورد في: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، ص١٨٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٨، ١٩٨٨م.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق، تقديم صلاح الهواري وهدى عوده، ٢١٧/١، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٣) الصناعتين الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري، ص١٤٧، تحقيق علي البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.

(٤) انظر ما ورد في النقد والحداثة: عبد السلام المسدي، ص٥٢، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط- ، ١٩٨٣م.

ولم يختر الكاتب هذه اللفظة إلا لقوتها، وبيان أهمية الصديق وتواجده، من ذلك ما كتبه الصولي يدعو أحد أصدقائه لزيارته[1]:-

حضر السرور وعيبه أن لست مسعدنا عليه

.

وكتب علي بن الخلف:-

(هذا اليوم – أطال الله بقاء سيدي – يوم أعرس.. ودعا إلى حضور وليمته، والسرور بمسرته..). وألفاظ الرسائل جاءت عذبة، تكسوها الرقة، سهلة متدفقة لا يحتاج القارئ إلى معاجم لغوية لشرحها، وفهمها، وهذا ما يطلق عليه السهل الممتنع؛ فنحن نفهم النص ولكن من المحال أن نستطيع ركوب صهوة البلاغة والفصاحة، فلا يملك ذلك إلا من لديه القدرة على اقتناص اللفظ والمعنى، تغذيه ثقافة وعلم جعلتا قلمه سهلًا عذبًا.

ولا يخفى على طالب العلم أن الكاتب ينوع ألفاظه، ويختار ما يناسب المعنى ويلائمه؛ ولذلك ظهرت معاجم لفظية خاصة بكل صنف، فمثلًا في رسائل الدعوة للزيارة ارتكزت أحاسيس الشاعر على لفظ تكرر عند الكتاب وهو (سرور)، وذلك بغية إيضاح علو منزلة المدعو، ومكانته الرفيعة التي تجعل صاحب الدعوة لا يهنأ، ولا يكتمل سروره إلا بحضوره، وانظر على سبيل المثال ما ورد في رسالة الصولي: (حضر السرور وعيبه..)، ورسالة علي بن الخلف: (... وقامت فيه سوق السرور لا يكسدها إلا تخلفه عن الحضور..)، فحوض الرسائل ريان بألفاظ مشبعة بالجزالة والأناقة لا يختل فيها معنى، ولا يعتورها نقص أو خشونة.

وفي رسائل الاستزارة التي موضوعها وصف الطعام والشراب نجد أن معجم الألفاظ فيها يعج بوصف المائدة، وقد اصطبغت بأسماء

(١) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصبهاني ٦٤١/١.

المأكولات والمشروبات الأعجمية التي تدل دلالة واضحة على تفشي الترف والبذخ في مجالس كبار الشخصيات من خلفاء ووزراء وكتاب وشعراء، كما تشير أيضًا إلى الحالة المادية المتدهورة عند عامة الناس.

فمن الألفاظ الأعجمية: (سكباج، فالوذج، طردين، طبرزد، سمطية، ..).

ومن الألفاظ العربية: (الدجاج، الفراريج، بر، عدس، زيتون، الخبز، زبيب، اللوز، السكر، الدهان).

وفي رسائل الدعوة ووصف المجلس تظهر لنا الألفاظ الزمانية والألفاظ المكانية. مثل ما كتبه العطوي إلى صديق له يدعوه: (يوم مطير وعيش نضير) فقوله: (مطير) يدل على وقت فصل الشتاء، وهطول المطر الذي يغري بجماله وروعة حباته انعقاد مجالس اللهو والأنس، ومثله قول الحسن بن سهل يدعو بعض أصدقائه: (أما ترى تكافؤ الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده..) فقد بين الشاعر زمن كتابة الرسالة فصل الشتاء حيث تراكمت السحب فحجبت الشمس، ولكنها امتنعت عن هطول الغيث، ومنه أيضًا رسالة صديق إلى أحمد بن يوسف الكاتب يصف فيها بدقة هطول الأمطار وعصف البرق وزمجرة الرعد يقول: (يومنا يوم ظريف النواحي، رقيق الحواشي، قد رعدت سماؤه وبرقت..).

كما استخدموا ذلك في رسائل الاعتذار عن زيارة بوصف يوم الشتاء المقرون بالمطر.. كقول أبي الشبل:

دع المواعيد لا تعرض لوجهتها إن المواعيد مقرون بها المطر

.

ومن ألفاظ الزمان أيام الأسبوع، وقد ورد يوم الجمعة تحديدًا في بعض الرسائل كرسالة أبي علي البصير، (..وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام..).

وقد يستخدم الكاتب لفظ (اليوم) دون تحديد ليوم بعينه، كقول علي بن الخلف في رسالة يدعو صديقه وسيده لزيارته في بستانه: (كتبت أطال الله بقاء سيدي – وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني والطير في الأوكار، والأنداء تهبط كالتيار والليل مشتمل على النهار) فالألفاظ التي استخدمت لإنشاء الرسالة تدل على أنَّ الزمن ليل قوله: (والليل مشتمل على النهار والطير في الأوكار)، وحدد قبل بزوغ الفجر؛ أما قوله: (والأنداء تهبط كالتيار) فهو في زمن الشتاء؛ حيث يسدل الندى ثوبه على الطبيعة.

كما ظهرت الألفاظ المكانية، كقول العطوي لأبي العباس أحمد بن الحسين العلوي:

أنا بالقرب منك عند كريم قد ألحت عليه شهب سيئة
. .

إلى أن يقول:

مجلس كالرياض حسنا وكن ليس قطب السرور واللهو فيه

ومثله رسالة المعري إلى أحد أصدقائه يدعوه للمجلس.. (لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا الخالي؛ لكي يحدث لي أنسك..).

ومنه رسالة علي بن الخلف لأحد أصدقائه يدعوه للزيارة، يقول فيها: (.. وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني والطير في الأوكار، والأنداء تهبط كالتيار).

ومثله كتب الوزير العباسي إلى نديم له:

أيها الكوفي شيخى قم بنا نحو الدُّويرة

فالألفاظ الواردة حددت مكان الاجتماع ومجلس اللهو كالرياض، منزلنا، بستاني، الدويرة فكلها أماكن ترتاد للهو والأنس للخاصة والعامة.

وهكذا يستمر الكتّابفيعقد صلة بين الألفاظ الزمانية والمكانية، والموضوع الذي أنشئت من أجله الرسالة، وبالتالي جعلنا نتوصل إلى أن مجالس اللهو والأنس تعقد في البساتين والقصور والبيوت،وزمن الانعقاد إما في الصباح الباكر، أو إذا جن الليل وأرخى سدوله، فأشعل لهيب اللقاء، فقد آن الأوان أن تدور الزجاجات والكؤوس، ويصدح صوت المغني، فتهتز الأبدان ويختفي صوت العقل.

والألفاظ المستخدمة تبين نوع العلاقة التي تربط بين الكاتب والمدعو.

وهي نوعان: أ) من الكاتب إلى الرئيس. ب) من الكاتب إلى نظيره.

من رسائل الدعوة الموجهة إلى الرئيس ما كتبه علي بن خلف يقول في ذلك:

" قد انتظم لنا – أطال الله بقاء سيدي – مجلس رقت حواشيه..

وله أيضًا رسالة أخرى يقول فيها: "هذا اليوم – أطال الله بقاء سيدي – يوم أعرس.." . ومثله قوله: "كتبت أطال الله بقاء سيدي – وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني والطير في الأوكار.." .

ومن ذلك أيضًا ما كتبه بديع الزمان الهمذاني إلى أبي القاسم الكرخي يقول فيها: "يعز علي – أطال الله بقاء الشيخ الرئيس –أن ينوب في خدمته قلم عن قدمي.." .

نجد أن الكتاب استخدموا ألفاظ تليق بمكانة الرئيس، وتبين منزلته معتمدًا في دعوته على وصف الجو استثارة للعواطف وإثارة للحماس.

في حين الرسائل الموجهة من الكاتب إلى نظيره لا تستدعي استخدام ألفاظٍ بعينها، بل إن الكاتب يلج مباشرة إلى موضوعه مبتدئًا بالدعاء، كرسالة أبي العلاء المعري إلى أحد أصدقائه يدعوه لحضور

المجلس، من ذلك قوله: " أصلحك اللّه وأبقاك، لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم إلى منزلنا، لكي يحدث لي أنسك يا زين الأخلاء،..".

ومثله قول الصولي مبتدئًا الرسالة بالفعل الماضي (حضر)؛ ليبين مكانة الصديق، من ذلك قوله:

حضر السرور وعيبه أن لست مسعدنا عليه

.

أو الوصف فيشرع الكاتب بوصف يومه ليثير أشجان صديقه ويشوقه، كقول العطوي لأحد أصدقائه:

يوم مطير وعيش نضير وكأس تدور وقدر تفور

.

إلى أن يقول:

فقم نصطبح قبل فوت الزمان فإن زمان التلهي قصير

.

إلى جانب ذلك عبقت الرسائل بألفاظ تكسوها الجزالة والعذوبة، وخاصةً رسائل الدعوة للزيارة، مثل رسالة أبي الفرج الدمشقي إلى صديق له[1]:

شهد اللّه أن كل سرور غبت عنه فليس لي بسرور

.

في حين ارتبطت الألفاظ الموحية بالدقة والمعنى البعيد عن استغلاق الفهم ووعورته بالوصف، وذلك في رسائل الاستزارة ووصف طعام وشراب ومجلس[2] لهو، فيختار الكاتب اللفظ القوي المعبر لرسم صورة دقيقة للموائد وبيئة المجلس.

(١) منعًا للإطالة والتكرار انظر ما ورد في المبحث السابق (رسائل دعوة للزيارة).

(٢) للاستزادة العلمية. انظر ما ورد في صفة المجلس في عيون الأنباء في طبقات الأدباء لابن أبي أصيبعة، ٣/ ٤١٨، دار الثقافة، د. ط، د. ت.

والملفت للانتباه أن الشعر (الرسالة الشعرية) تسيطر على هذا النوع من الرسائل، وذلك لسهولة النظم، وقدرة الشعر على الوصف بدقة دون ميل إلى استطراد أو إطناب.

فغاية الكاتب من رسم صورة دقيقة للمائدة والمجلس تحريك المشاعر وسرعة الحضور والتلبية، من ذلك ما كتبه العطوي إلى صديق له يقول[1]:

يومنا طيب به حسن القـ ... صف وحث الأرطال والكاسات

ولدينا ظبي غرير ظريف ... قد غنينا به عن القينات..

أن تخلفت بعد ما تصل الرقـ ... عة عنا فأنت في الأموات

فأجابه صديقه على الفور[2]:

أنا في أثر قعتي فاعلمن ذا ... ك على أنني من البيات

فافهم الشرط بيننا لا تقل لي ... قد تثاقلت فانصرف بحياتي..

ومنه أيضًا ما كتبه جحظة البرمكي إلى صديق له[3]:

لنا يا أخي فرحة وافرة ... وقدر موفرة حاضرة

وراح تريك إذا صفقت ... سنا البرق في الليلة الماطرة

(١) انظر ما ورد في: الأغاني، أبو فرج الأصبهاني ٦٠/٢٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ٦٤٢/١.

فمعظم الرسائل التي وقفنا عليها جاءت ألفاظها عذبة منمقة بلا تكلف ولا تصيد للألفاظ والمعاني؛ بل جاءت عفوية تلقائية تنبئ عن مشاعر عذبة رقيقة، وثقافة استمدها صاحبها من البيئة المحيطة به. نستثني من ذلك رسائل علي بن خلف والهمذاني وابن المعتمد التي نحسُّ فيها بالصناعة اللفظية وعدم التلقائية إلى جانب الإطناب الذي أخل بالمستوى الفني للرسالة.

وألفاظ الرسائل أشبه بمرآة عاكسة تكشف الألفاظ المبتذلة التي استخدمت، وتبين ما عليه المجتمع (مجالس الأنس) من هتك وسفور للحياء فانظر ما ورد في رسالة محمد بن باج يدعو صديقه لاستزارته واصفًا الطعام والشراب وما يدور في المجلس (امتنعنا عن ذكر النص كاملًا لأنها لا تليق بالبحث العلمي ومن يريد الاطلاع عليه الرجوع إلى المصدر).

وهذه الألفاظ سادت في مجتمع العصر العباسي بحكم انتقال العادات والتقاليد الفارسية، والتوسع في ذلك دون حسيب ولا رقيب.

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة منعًا للإطالة، ونحيل من يرغب بالاستزادة على المبحث الأول من البحث.

جدول مصطلح الألفاظ الواردة في الرسائل

١) ألفاظ خاصة بالأطعمة:-

<table>
<tr><td colspan="2">بيض</td><td>بر</td><td colspan="2">أوزة</td><td>الطير</td><td>العيس</td></tr>
<tr><td colspan="2">دجاج</td><td>خبز</td><td colspan="3">حمص</td><td>ثريد</td></tr>
<tr><td>سكر</td><td>سكباج</td><td>زبيب</td><td colspan="3">زيتون</td><td></td></tr>
<tr><td></td><td></td><td></td><td colspan="3">فراريج</td><td>لوز</td></tr>
</table>

٢) ألفاظ المشروبات:-

مدام	نبيذ	راح	صهباء

٣) ألفاظ الأدوات المطبخية (المائدة):-

الكاسات	الزجاجات
برمة	جفنة
ذكيرة	زنبيل
قدر	قديرة

٤) ألفاظ خاصة بمجالس اللهو والسمر:-

الغناء	المسمع
قينات	غلام
كأس	الجاريات
النبيذ	الزجاجات
القوارير	مغنى

٥) ألفاظ دالة على الأبنية والدور:-

بيت	بستان
روضه	مجلس
منزل	قاطول

٦) ألفاظ دالة على البيئة:-

البرق	الشمس
السماء	روضة غناء
روضة	رعد
مأدبة	مطر

٧) ألفاظ إسلامية:-

الله	التنزيل	أحمد	
حيّ	السلام	سورة المائدة	أضغاث أحلام

٨) ألفاظ خاصة برسائل الاستزارة:-

أ) رسائل دعوة للاستزارة:-

قطب السرور	أطال الله بقاء سيدى
فعل إن شاء الله تعالى	الأنس بك
فليطلع علينا طلعته	حظًا
وينقل قدمه إليهم	حضور
	سرور

ب- ألفاظ خاصة بالاستزارة ووصف الأطعمة والمشروبات:-

ألوان	الزجاجات
راح	سكباج
غلام	قينات
مدام	نبيذ
صهباء	قوارير

ج- رسائل دعوة ووصف مجلس لهو:-

البرق	السرور
الكاسات	القصف
غلام	غناء
قطب السرور	كأس تدور
يوم مطير	

ثانيًا: البناء التركيبي للرسائل:-

لم يتخذ الكتاب منهجًا واحدًا في كتابة الرسائل، بل زاوجوا بين الأساليب الخبرية والإنشائية، نورد أمثلة على ذلك:-

أولًا: الأساليب الخبرية:-

اعتمد كثير من الكتاب على الأساليب الخبرية في رسائلهم، ومثال ذلك رسالة أبي علي البصير التي يقول في جزء منها[(١)]:

".. وأرجو أن تتسع لنا الجمعة بما بخلت به الأيام، فننال حظًا من محادثتك والأنس بك ".

ومثله ما ورد في رسالة علي بن خلف لأحد أصدقائه، نقتطع منها قوله[(٢)]:-

" رقعتي – أطال الله بقاء سيدي ومجلسي بمن حلّه من خدمه.. "

وله مثله في رسالة أخرى:

".. هذا اليوم – أطال الله بقاء سيدي – يوم أعرس فيه الجو بالجارية البيضاء.." [(٣)]:-

وورد أيضًا في رسالة أحمد بن يوسف في قوله[(٤)]:

" يومنا يوم ظريف النواحي، رقيق الحواشي.. ".

ونختم على الاستشهاد برسالة جحظة البرمكي يقول فيها[(٥)]:

لنا يا أخي فرحة عامرة وقدر موفرة حاضرة
. .

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب: الحصري القيرواني ٣/ ٣٦١.
(٢) انظر ما ورد في صبح الأعشى: القلقشندي ٩/ ١٥١.
(٣) انظر المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠/١٣.
(٥) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤٣.

ثانيًا: الأساليب الإنشائية:

أ)الأفعال (فعل الأمر –الفعل المضارع):

توزعت الأساليب الإنشائية في ديباجة الرسائل بطريقة فنية فاستخدموا الأفعال بأزمنتها المختلفة.

نورد على سبيل المثال لا الحصر ورود فعل الأمر في رسائلهم، وقد توشج برداء سرعة الحضور وتلبية الدعوة ومشاركتهم المجلس. فانظر إلى رسالة محمد بن باج إلى أحد أصدقائه نجتزء منها قوله(١): " فائتنا نأكل ونشرب..".

ورسالة إبراهيم بن أبي محمد اليزيدي إلى ابن أخيه محمد بن أبي محمد نقتطف منها قوله(٢):

يا أكرم الناس طرا وأكرم الفتيان
.
بادر إلينا لكيما تسقي سلاف الدنان
.

كما ورد أيضًا في رسالة الحسين بن الحسن بن سهل إلى أحد أصدقائه نقتطع منها قوله(٣):-

(نحن في مأدبة لنا، تشرف على روضة،.. فبادر إلينا لنكون على سواء من استمتاع بعضنا ببعض).

ورسالة أحد الكُتَّاب يقول فيها(٤):

أنا في أثر رقعتي فاعملن ذا ك على أنني من البيات
.

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصبهاني ٦٤٢/١.
(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٦/ ٨٨.
(٣) انظر ما ورد في فنون النثر في الأدب العباسي. محمود صالح، ص١٠٥.
(٤) انظر ما ورد في فنون الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠/ ٥٩.

فافهم الشرط بيننا لا تقل لي قد تثاقلت فانصرف بحياتي
.
لا لسرّكن لأمتع نفسي بحديث الظبي الغرير المواتي
.

نستخلص مما سبق أن فعل الأمر يشيع في الرسائل؛ وإن اختلفت ألفاظه (بادر – ائتنا).

فقد اتفقت في معناه، وهو سرعة تلبية الدعوة، وحتى يؤثر على السامع اعتمد على خاصية فن الوصف لإحداث الإثارة، وهز الوجدان وسرعة الحضور.

ولم يقتصر استعمال الكتاب لفعل الأمر؛ بل رصعوا رسائلهم بالفعل المضارع سواء أكان صحيحًا أم مسبوقًا بأداة، نمثل على ذلك:

رسالة العطوي إلى أحد أصدقائه نقتطع منها قوله[1]:

تزدهيني وأين مثلي في الفهم تغنيه ثم لا تزدهيه
.

فالفعل المضارع الصحيح (تزدهيني)، (تغنيه)، وفعل المضارعالمسبوق بلا الناهية (لا تزدهيه) أكسب النص مزيدًا من الوضوح للفكرة ورونقًا باستعمال الفعل بحالة الإيجاب تارة، والسلب تارة أخرى.

وللعطوي رسالة أخرى يقول فيها:

يوم مطير وعيش نضير وكأس تدور وقدر تفور
.
وعثت تأتي إذا جئتنا فتسمع منها غناء يصور
.

(١) المصدر السابق نفسه ٢٠/ ٦٠.

فورود الفعل المضارع (تدور – تفور – تسمع – يصور) أعطى صورة عن المجلس وما يدور فيه من لهو وأنس.

كما ورد أيضًا في رسائل علي بن خلف في قوله[1]:

".. فإن رأى أن يطلع فيه بدرًا بطلوعه، وينقل قدمه إليهم، ويكمل نقصهم بتمامه، ويضيف ذلك إلى تليد إنعامه، فعلت، إن شاء الله تعالى ".

فالفعل المضارع: (يطلع، ينقل، يكمل، يضيف) الذي يدل على الاستمرار بيّن مكانة المدعو، وعلو منزلته.

ومثله ما ورد في رسالة سعيد بن عبد الملك إلى عبيد الله بن سليمان نقتطع منها قوله[2]:

".. ثم إنا نأتيك..، فيحجبنا عنك ملاحظ،.. ويحجب عنك الكرام، ويأذن عليك اللئام..، فإن رأيت – أعزك الله – أن تصرفه عن باب مكارمك فعلت، إن شاء الله ".

فورد الفعل المضارع في: (نأتيك – يحجبنا – يحجب – يأذن – تصرفه).

وقد استطاع الكاتب أن يصور مشاعره، وما اعتراه من ألم بسبب منع الزيارة، ورد فعله في طلب عزل الحاجب، وصرفه عن عمله.

كما ورد أيضًا في رسالة أحد الكتاب في قوله [3]:

(إن رأيت أن تحدد لي ميعادًا لزيارتك، أتقوته إلى وقت رؤيتك، ويؤنسني إلى حين لقائك، فعلت إن شاء الله).

(١) انظر ما ورد في صبح الأعشى: القلقشندي ١٥١/٩، وانظر ص (١٥٢، ١٥٣، ١٥٤).
(٢) انظر ما ورد في زهر الآداب: الحصري القيرواني ١/ ٥٥٠.
(٣) انظر ما ورد في زهر الآداب: الحصري القيرواني، ١١٤٦/٤.

فورد الفعل المضارع في قوله (تحدد – يؤنسني)، ليضفي على الرسالة صدق مشاعر الكاتب وجديته في اللقاء والزيارة.

ومثله ورد في رسالة أحد الكتاب[1]:

١- وكتبت والكأس في عيناي وأحسن الناس يلهينا ويسقينا
مترعةٌ . .

فقوله: (يلهينا)، (يسقينا) فعل مضارع يدل على الاستمرارية فهو يصف الحدثوما يدور في المجلس لإغراء صديقه بالحضور.

ب)الاستفهام المجازي:-

استخدم الكتاب الاستفهام المجازي رغبة في إثارة المتلقي، وإحداث حلقة وصل بينه وبين الكاتب.

وفيما يلي شواهد على رسائلهم أوردها على سبيل المثال لا الحصر:

مثل ما ورد في رسالة إبراهيم بن المدبر إلى عريب[2]:-

كيف السرور وأنت نازحة عني وكيف يسوغ لي الطرب؟
. .

ورسالة خزامى جارية الضبط إلى ابن المعتز[3]:

أأكرمت يا ابن الأكرمين إنابتي وقد أفصحت لي ألسن الدهر بالزجر؟
.

وما ورد في رسالة إبراهيم بن العباس[4]:

ألم ترنا يومنا إذا نأت فلم تأت من بين أترابها؟
. .

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصبهاني ٦٤٤/١.
(٢) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٩/ ١٢٥.
(٣) المصدر السابق نفسه ٩/ ١٣٨.
(٤) المصدر السابق نفسه ١٢٦/١٩.

ومثله رسالة العطوي:

يومنا طيب به حسن القصف وحث الأرطال والكاسات .

ما ترى البرق كيف يلمع فيه ورشاشًا يبل في الساعات .

ومثله ما دار بين عريب وإبراهيم بن المدبر؛ حيث كتبت عريب رسالة إلى إبراهيم بن المدبر:[1]

" بسم الله الرحمن الرحيم.

أردت لولا لعلى.

فأجابها إبراهيم وكتب تحت أردت: (ليت)، وتحت لولا: (ماذا) وتحت لعلى: (أرجو).

وعلى هذه الشاكلة تناثر الاستفهام في ثنايا الرسائل؛ لإثراء النص من خلال أدواته التي تفيد التقرير والتنبيه والتساؤل والتعجب.

ج) <u>النداء</u>:

إلى جانب الأساليب الإنشائية السابقة استخدموا صيغة النداء؛ للفت الانتباه والتأثير.

نستعرض نماذج على ورود النداء في رسائل الاستزارة كرسالة العطوي[2] إلى أبي العباس أحمد بن الحسين.

يا ابن من طاب في المواليد مُذ آدم جر إلى الحسين أبيه .

أنا بالقرب منك عند كريم قد ألحت عليه شهب سنيه .

(١) المصدر السابق نفسه ٦١/١٩.

(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٥٩/٢٠.

ورسالة حماد عجرد إلى محمد بن الفضل السلولي[١]:

محمد يا أبا الفضل يا ذا المجد ... ويا بهجة النادي وزين المشاهد

وله رسالة أخرى أيضًا[٢]:

قد غفرنا الذنب يا ابن الفضل والذنب عظيم.

ومسيء أنت يا ابن الفضل في ذاك مليم.

ورسالة أبان بن حمدان إلى أبيه حمدان بن أبان يقول فيها[٣]:

يا أبي لا ترث لي من غيبتي ... أنا في خير و لهو ودعهْ

صرت من حبس دنا مطلقا ... ومن الضيق إلى كل سعهْ

ومنه رسالة جعفر بن المأمون إلى إبراهيم بن محمد اليزيدي يقول فيها[٤]:

غير ملوم يا أبا جعفر ... أن تؤثر اللهو ويوم السرور

وعلى هذه الشاكلة اتخذ الكتاب النداء ظاهرة أسلوبية تنعش الرسائل وتمنحها ازدهارًا في اللفظ، وقوة وتأثيرًا في المعنى.

د) التكرار:

" المراد بالتكرار هو تكرار المعاني والألفاظ، والتكرار إن لم يكن له مسوغ فني؛ فهو ممقوت بغيض يدل على ضعف ثروة الأديب اللغوية والفكرية، ولكنه يكون رائعًا حين تقتضيه الصورة، أو ينشره

(١) انظر ما ورد في المصدر السابق نفسه أبو الفرج الأصبهاني ١٣/٧٧.
(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٣/ ٧٨.
(٣) انظر ما ورد في: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق: الصولي ص٦٣.
(٤) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٦/٩١.

الوجدان، والتكرار إذا حمل معنى جديدًا، أو فائدة، فهو محمود، وإلا فهو مذموم"[(١)].

"وأبسط أنواعه تكرار عبارة أو فقرة أو فقرتين بهدف جمالي صرف أو بهدف جمالي له علاقة بالمضمون.."[(٢)].

"ويجب أن يكون التكرار على سبيل التقدير أوالتوبيخ، أو على جهة الوعد والتهديد، وإن كان عتاب موجع، أو على وجه التوجه إن كان رثاءً أو تأبينًا.."[(٣)].

نورد بعض الأمثلة على سبيل الاستشهاد لا الحصر.. تكررت ألفاظ بعينها في رسائل علي بن خلف وبديع الزمان الهمذاني، نمثل على ذلك برسائل علي بن خلف؛ حيث تكرر استخدام الألفاظ التالية:

(هذا، أطال الله بقاء سيدي، بنقل قدمه إلي، فإن رأى، إن شاء الله تعالى) يقول في إحدى رسائله[(٤)]:

(كتبت أطال الله بقاء سيدي.... فإن رأى - أراه الله ما يقر العين- بنقل قدمه إلى، فعل إن شاء الله تعالى).

وله رسالة أخرى يقول فيها[(٥)]:

---

(١) انظر ما ورد في البلاغة العربية في ثوبها الجديد – علم المعاني – بكري شيخ أمين، ٢٠١/١، دار العلم للملايين. بيروت – لبنان. للاستزادة العلمية انظر ما ورد في: البلاغة العربية – علم المعاني – عبد العزيز عتيق، ص٢٠٨، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. التكرار في شعر الخنساء دراسة فنية، عبد الرحمن الهليل، ص١٧، دار المؤيد، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين ابن الأثير تحقيق: أحمد الجوفي، وبدوي طبانة، ص ٧، ج٣، ط٢، دار الرفاعي بالرياض، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٢) انظر ما ورد في جماليات القصة القصيرة، إدريس الكريوي، دار الثقافة للنشر والتوزيع. الدار البيضاء – المغرب، ط١، ٢٠١٠م.

(٣) العمدة لابن رشيق القيرواني، ٢/ ٧٥ – ٧٦ بتصرف.

(٤) انظر ما ورد في صبح الأعشى. القلقشندي ٩/ ١٥٣، ١٥٤.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(هذا اليوم – أطال الله بقاء سيدي.. فإن رأى..).

وله أيضًا[1]:

(هذا أطال الله بقاء مولانا..).

ومثله[2]: (قد انتظم لنا – أطال الله بقاء سيدي.. فإن رأى أن – ينقل قدمه إلينا.. إن شاء الله تعالى). جميع ما ورد من تكرار في الشواهد السابقة تكرار صوتي أراد من خلاله تعداد مناقب الرئيس وعلو مكانته.

ومن التكرار أيضًا ما ورد في رسالة أبي الفرج الدمشقي إلى صديق له[3]:

شهد الله أن كل سرور غبت عنه فليس بسرور

.

فكرر (سرور – بسرور) وهو تكرار صوتي، وغالبًا ما نجد تكرار لفظ سرور في رسائل دعوة للاستزارة رغبة وتأكيد من الكاتب بعلو منزلة الصديق ومشاركة مجلسه ليتم الأنس.

ومنه أيضًا رسالة لحماد عجرد يقول فيها[4]:

قد غفرنا الذنب يا ابن الفضل والذنب عظيم.

ومسيء أنت يا ابن الفضل في ذاك مليم.

فكرر (يا ابن الفضل)، (الذنب)، وهو تكرار صوتي، والتكرار في الشعر له ميزة حسنة، إذ يعلق بالذهن الأبيات، ويساعد

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء. للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤١.

(٤) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٣/٧٨.

على حفظها، وكذلك له تأثير نفسي؛ إذ يتجاوب المتلقي مع أحاسيس الشاعر وانفعالاته.

ومن رسائل التكرار اللفظي رسالة أحد الكتاب إلى صديق له[1]:

أبـــــدًا تحصـــــل عنـــــدي ثـــــم لا أحصـــــل عنـــــدك

.

فكرر لفظة (تحصل – لا أحصل) وهو تكرار لفظي إشارة إلى وجوب تبادل الاستزارة بين الأصدقاء.

ومن الألفاظ التي تكررت في رسائل الدعوة للاستزارة، ورسائل مجالس اللهو والأنس (قطب السرور)، وهو كناية عن الخمرة، ويمثل بؤرة ينطلق منها شعاع الأنس في مجالس اللهو، وحينًا آخر يكنى بها عن الصديق، وما يمثله تواجده من سرور وحياة في المجلس.

فمن رسائل الدعوة لمجلس أنس، رسالة أحد الكتاب إلى أحمد بن يوسف يقول فيها[2]:

(يومنا يوم ظريف النواحي، رقيق الحواشي، .. وأنت قطب السرور ونظام الأمور..).

ورسالة العطوي إلى أبي العباس أحمد بن الحسين العلوي يقول فيها[3]:

مجلـس كالريـاض حسـنا ولكـن ليس قطب السرور واللهو فيه

.

فقطب السرور هنا كناية عن الخمرة.

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء. للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤٦.
(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ١٣ / ٣٠.
(٣) انظر ما ورد في المصدر السابق ٢٠ / ٥٩.

وورد أيضًا في رسالة جعفر بن المأمون إلى إبراهيم بن محمد اليزيدي، يقول فيها[1]:

إن لم يكن عندي غناء ولا عود فعندي القمر بالنرد شير

فكرر (عندي – فعندي) وهو تكرار لفظي أراد من خلاله التأثير على السامع وتلبية دعوة الاستزارة.

نستخلص مما سبق ورود التكرار الصوتي واللفظي في الرسائل، وجاء عفويًا ولم يكن متكلفًا، كما لاحظنا أن بعض أنواع الرسائل تستوجب تكرار ألفاظ بعينها، لارتباط اللفظ بالمعنى والموضوع. وقد استطاعوا من خلال التكرار نقل الأوصاف والأحاسيس، فكان هناك تبادل شعوري انفعالي بين الكاتب والمتلقي، وهذا يثبت الإيجابية في استخدامهم للتكرار.

* = *

(١) انظر ما ورد في المصدر السابق ٢٠ / ٥٩.

ثالثًا :
المحسنات البديعية وتشمل :

أ) الجناس. ب) السجع. ج) الطباق

د) المقابلة. هـ) الاقتباس. و) التضمين.

أ) الجناس:

يعد الجناس محسنًا لفظيًا، يقصد إليه الأديب لغاية فنية، وهي شد انتباه المتلقي وإثارته، ولا يجيد استخدامه إلا من أوتي قدرة بيانية فائقة وموهبة أدبية إلى جانب علم غزير يرفده. فالتلاعب بالألفاظ مهمة الكاتب الحاذق الماهر.

وقد عرفه العلماء[(١)] عدة تعريفات منها قولهم:

"هو أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى"[(٢)]..

نستطيع على ضوء ذلك أن نقول: يحدث التجنيس في حالتين، الأولى: وهو ما يسمى بالجناس الناقص؛ حيث يختلف تركيب اللفظة بزيادة حرف أو نقصانه كقولك: رحيب، يخيب. والثانية: الجناس الاشتقاقي، ونطلق عليه الجناس الاشتقاقي؛ لأن الألفاظ في حال تشابه تام للهيئة والصورة وتنطلق من مصدر واحد مع اختلاف في المعنى، كقولك: الساعة. فلها معنيان حسب إيرادها في الجملة، فتأتي بمعنى آلة التوقيت الزمنى، أو بمعنى: يوم القيامة[(٣)].

وقد استخدم الكتاب الجناس لما له من أثر فني، فمن الجناس الناقص الذي ورد في رسائلهم: رسالة علي بن الخلف، نقتطف منها قوله[(٤)]:

(١) انظر ما ورد في: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، ٣٢١/١، حققه محمد عبد الحميد دار الجيل ط٤، بيروت- لبنان، ١٩٧٢م. وثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني وآخرون معه، ص٩٩، د.ط، د. ت، ونقد النثر لابن قدامة ص٥٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م. وعلم أساليب البيان غازي اليموت، دار الفكر اللبناني، بيروت – لبنان، د. ط، د. ت.

(٢) انظر ما ورد في العمدة لابن رشيق القيرواني ٣٢١/١، والصناعتين، لأبي هلال العسكري ص٣٥٣.

(٣) التعريف من قبل الباحثة.

(٤) انظر ما ورد في صبح الأعشى: القلقشندي ٩/ (١٥١ – ١٥٤).

"فإن رأى أن يكمل جذلنا.. بنقل قدمه إلينا، سر وأبهج، وتمم من الإحسان ما أخدج إن شاء الله تعالى". فالجناس في قوله (أبهج)، (أخدج) بين الباء والخاء، والهاء والدال، وهو جناس ناقص.

وله أيضًا رسالة أخرى في الاستزارة[1]: "يوم صفيق الظل، رقيق، غلاله الطل.. ووشت مدارج نسيمه، بأرج شميمه. كأنما تحفلت لاجتلاء عروس، أو معاطاة كؤوس.. ونارنج يحمل أكبر العقيان، أو جنان القيان".

فالجناس الناقص بين: (الظل والطل) بين الظاء والطاء، وبين (نسيمه، شميمه) بين النون والشين، والسين والميم، وبين (عروس – كؤوس) العين والكاف، والواو والهمزة. وبين (العقيان – القيان) فزاد حرف العين في العقيان.

ومن الرسائل التي ورد فيها الجناس رسالة أحد الكتاب يدعو أخاه لزيارته[2]:

نحن في أطيب الحبور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور

.

فجانس بين (الحبور والسرور) بين الحاء والسين والباء والراء.

ومثله رسالة بديع الزمان الهمذاني لأبي القاسم الكرخي، ومنها قوله[3]:

(١) المصدر السابق نفسه. وللاستزادة العلمية ارجع للمصدر السابق نفسه وردت عدة رسائل لعلي بن الخلف.

(٢) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤١.

(٣) انظر ما ورد في صبح الأعشى، القلقشندي ١٥١/٩.

(يعز علي – أطال الله بقاء الشيخ الرئيس – أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي، ويسعد برؤيته رسولي دون وصولي، ويرد شرعة الأنس به كتابي قبل ركابي..).

فجانس بين (في خدمته قلمي، عن قدمي) بين اللام في (قلمي) والدال في (قدمي) وقوله: (رسولي، وصولي) بين الراء والواو، والسين والصاد.

وقوله: (كتابي، ركابي) بين الكاف والراء، والجناس الوارد جناس ناقص أراد الكاتب من خلاله إبراز مكانة أبي القاسم الكرخي وعلو شأنه.

وعلى هذه الشاكلة جاء الجناس الناقص في رسائل الاستزارة كنفحات خيرة أضافت إيقاعًا جميلًا للنص دون تكبد وعناء في انتقاء لفظ.

وازدانت الرسائل أيضًا بالجناس الاشتقاقي، وإن كان وروده أقل بالنسبة للجناس الناقص، فورد على سبيل المثال بعض النماذج، كرسالة علي بن الخلف، نقتطف منها قوله[1]: "فإن رأى أن يُطلع فيه بدرًا بطلوعه، وينقل قدمه إليهم". فالجناس الاشتقاقي بين: (يطلع – بطلوعه) فكلاهما من مصدر واحد(طلع) فالكاتب ارتأى أن ينتقي هذا اللفظ؛ ليشعر صاحبه بمكانته الرفيعة وأهميته في تلبية الدعوة والحضور.

وورد الجناس الاشتقاقي أيضًا في رسالة اعتذار عن زيارة كتبها الجاحظ إلى عبد الملك بن الزيات، نقتطع منها قوله[2]:

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤١.
(٢) انظر ما ورد في: جمهرة رسائل العرب. أحمد صفوت ٤/ ٤٣.

"فإن كنت اجترأت عليك – أصلحك الله – فلم أجترئ إلا لأن..". فقوله (اجترأت عليك – لم اجترئ). جناس اشتقاقي لأنهما انبعثا من مصدر واحد هو الجرأة.

ومنه رسالة جعفر بن المأمون إلى إبراهيم بن محمد اليزيدي يستزيره[1]:

شـــردت يـــا هـــذا شـــرود الـــبعير وطالـــت الغيبـــة عنـــد الأمـــير

.

فالجناس الاشتقاقي في قوله: (شردت –شرود) من شرد، وأراد بذلك معاتبته وحثه على المجيء.

ومنه أيضًا ما ورد في رسالة كشاجم يدعو صديقه لزيارته[2]:

كـــن جـــوابي ولا تـــركن إلى عـــذرٍ فـــإن ركنـــت إلى شـــيء أتينـــاه

.

فالجناس الاشتقاقي قوله: (تركن – ركنت) من ركن.

وعلى هذه الوتيرة برز استخدام الجناس عند الكتاب بعفوية وتلقائية دون كد أو عناء ليكمل بذلك مرحلة بناء النص من ناحية الموسيقى الداخلية التي أضفت عليه ازدهار الألفاظ وقوتها ورونقها.

* = *

ب) السجع:

يستخدم الكتاب طريقة معينة في الانتهاء من الجملة، أو العبارة؛ بحيث تتفق الحروف في نهايتها، وهذا أشبه بالنغمات الموسيقية التي تخلب الألباب وتثير الإعجاب.

(١) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٩١/١٦.

(٢) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ٦٤٣/١.

نستشهد على ذلك بما ورد في رسالة العطوي، يقول فيها[1]:

يوم مطير وعيش نضير وكأس تدور وقدر تفور

.

فاستخدم السجع في البيت الأول في الشطر الأول في قوله: (مطير – نضير)؛ ليصف حالة الطقس والمجلس. ثم انتقل لاستخدامه في الشطر الثاني؛ ليكمل وصف المجلس (تدور – تفور). وهذا الاستخدام العفوي جعل الألفاظ معزوفة رائعة، واستطاعت أن تؤثر على صديقه الذي دعاه لاستزارته فلبى الدعوة.

ووجد السجع أيضًا في رسائل ابن المعتز كرسالته التي يقول فيها[2]:

(ما زال الحاسد لنا عليك أيها الوزير ينصب الحبائل، ويطلب الغوائل، حتى انتهز فرصته، وأبلغك تشنيعًا زخرفه، وكذبًا زوره، ..).

فاستخدم السجع في قوله: (الحبائل – الغوائل) ليصف خبايا العدو الحاسد.

وكذلك في قوله (فرصته – زخرفه– زوره). ليصف أخلاق العدو ومدى مكره وخبثه ودهائه، حتى يظفر برضا الصديق.

ونقتطع أيضًا رسالة لبديع الزمان الهمذاني، يقول فيها[3]:

(.. وقد وصلت تحيته فشكرتها، وعدته الجميلة بالحضور غدًا، فانتظرتها، ودعوت الله أن يطوي ساعات النهار، ويزج الشمس في المغار، ويقرب مسافة الفلك الدوار، ويرفع البركة من سيره، ويجهز الحركة إلى دوره، ويسرني بوفد الظلام وقد نزل، ثم لا يلبث إلا حيثما رحل..).

(١) انظر ما ورد في: الأغاني: أبو فرج الأصبهاني ٢٠ / ٦٠.
(٢) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٤/ ٩٤٨.
(٣) انظر ما ورد في المصدر السابق نفسه ٢/ ٤١٧.

فورد السجع في قوله: (فشكرتها – فانتظرتها)، (النهار، المغار، الدوار)، (سيره – دوره)، (نزل – رحل)، وهو قائم على وصف لمشاعره المتأججة في انتظار قدوم الصديق؛ ليبين عظم وعلو منزلته.

ومنه ما ورد في رسالة سعيد بن عبد الملك إلى عبيد الله بن سليمان، نقتطع منها قوله[1]:

".. وهو كما علمت زنيم الصنيعة، لئيم الطبيعة، يحجب عنك الكرام، ويأذن عليك اللئام، كلما نجمت له يد بيضاء، أتبعها يدًا سوداء..".

فورد السجع في قوله: (الصنيعة – الطبيعة)، (الكرام – اللئام)، (بيضاء، سوداء) وهو أيضًا مقابلة؛ ليصف سوء أخلاق الحاجب.

ومن ذلك أيضًا ما ورد في رسالة ابن مكرم إلى أبي العيناء يصف مجلسه ويدعوه لزيارته، يقول فيها[2]:

"عندنا سكباج يعرف المجنون، وحديث يطرب المحزون، وإخوانك الملحدون، فلا تعلو عليوائتون".

فالسجع في قوله: (المجنون، المحزون، الملحدون، وائتون) والسجع وإن أضاف موسيقى للألفاظ إلا أنه وصف المجلس وما يدور فيه من فسق ومجون.

فالكتاب انغمسوا في استخدام السجع، ولكنه استخدم ببراعة بيانية ومهارة فنية لا يحصل عليها إلا من أوتى علم غزير وثقافة واسعة، واستخدم حينًا بعفوية مطلقة في العصر العباسي الأول والثاني وما بعدهما، وأرهقه حيناً آخر التكلف والتصنع خاصة مع الرسائل الطويلة، كما أشرنا سالفًا عند علي بن الخلف وبديع الزمان الهمذاني.

(١) انظر ما ورد في المصدر السابق نفسه ١ / ٥٥٠.

(٢) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤٣.

ج) الطباق:

يعد الطباق أحد النغمات الموسيقية الداخلية التي تضفي على النص موسيقى رائعة عذبة، فتضفي على النص توهجًا ورقيًا إذا جاء عفويًا ينساب بسلاسة دون تكلف، أما إذا جاء متكلفًا كأن صاحبه يقد الألفاظ من الصخر، غدا بشعا تمجه الآذان، وتشمئز منه النفوس؛ فلذلك اشترط في استخدامه العفوية والتلقائية التي تحدث نشوة وطربًا عند المتلقي، وتكسب النص متعة ذهنية، فيحدث الانسجام بين الكاتب والمتلقي.

وقد عرف العلماء قديمًا الطباق ووردت عدة تعريفات له[(١)] منها[(٢)]: "أنه الجمع بين متضادين؛ أي معنين متقابلين في الجملة".

وعرف عند المحدثين بالتضاد التصويري[(٣)]، وهو: "نوع من العلاقة بين المعاني بل كانت أقرب إلى الذهن من أية علاقة أخرى، فمجرد ذكر معني من المعاني، يدعو ضد هذا المعنى إلى الذهن، ولاسيما بين الألوان فذكر البياض يستحضر في الذهن السواد، فعلاقة الضدية من أوضح العلاقات في تداعي المعاني".

ولذلك يعد الطباق سمة أسلوبية مميزة في الرسائل يتصف صاحبها بالقدرة على تصوير موقف؛ فينقل لنا أحاسيسه وما يدور في بيئته من حياة ومواقف، نستشهد الآن بنصوص مختارة من الرسائل كأمثلة على ذلك:

---

(١) انظر ما ورد في: الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني ص ٣٤٨. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ومفتاح العلوم للسكاكي، ص ٤٣٣، د.ط، د.ت، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ص٢٩٢، السيد الهاشمي، ط٦، د.ت.

(٢) انظر ما ورد في: الصناعتين لأبي هلال العسكري. ص٣٣٩.

(٣) انظر ما ورد في إطلالة جديدة على الشعر السعودي، فوزي خضر، ص ٤٦، من إصدارات نادي الطائف الأدبي، ط٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

كتب أحد الكتاب دعوة للاستزارة يقول فيها[1]:

نحن في أطيب الحبور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غبتم ونحن حضور

فطابق في البيت الثاني الشطر الثاني بين الغياب والحضور في قوله (أنكم غبتم – ونحن حضور).

وذلك ليبين لصديقه الأثر السلبي على نفسية الكاتب في غياب الصديق عن المجلس.

ومن ذلك أيضًا رسالة إبراهيم بن العباس الصولي[2]:

أبدًا معتذر لا يعتذر ... وركوب للتي لا تغفر

وملقى بمساوكلها ... منه تبدو وإليه تصدر

هي من كل الورى منكرة ... وهي منه وحده لا تنكر

ففي قوله: (معتذر – لا يعتذر) في الشطر الأول من البيت الأول طباق وفي قوله: (تبدو إليه – وإليه تصدر) في الشطر الثاني من البيت الثاني أيضًا طباق، وهو في كلتا الحالتين أراد أن يبين مكانة الصديق.

ومن رسالةابن المعتز لعبيد الله بن وهب نقتطع منها قوله[3]:

(١) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصبهاني ١/ ٦٤١.

(٢) انظر ما ورد في: الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني ٧/ ٢٢.

(٣) انظر ما ورد في: زهر الآداب: الحصري القيرواني ٢٠٧/١، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني.، شوقي ضيف ص٥٦٩.

".. ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه.. ".

فطابق بين شيئين هما: (الإحسان إليه – الإحسان منه).

وورد أيضًا في رسالة العنتري إلى الوزير الرضا في ليلة ممطرة[1]:

قل للوزير أدام الله نعمته ... في دولة أمرها في الحضر والبادي
بعثت في طلبي والغيث منسكب ... والوحل قد كف سير الرائح الغادي

فورد الطباق في الشطر الثاني من البيت الأول في قوله: (الحضر – البادي) ليبين نفوذ وسلطة الوزير.

وفي الشطر الثاني من البيت الثاني (الرائح – الغادي)؛ ليبين شدة هطول الغيث وأثره على المارة حيث حجموا عن السير خوفًا من الوحل ووعورة الطريق.

ومنه أيضًا رسالة جعفر بن المأمون إلى إبراهيم بن محمد اليزيدي يقول فيها:

يوم عريب مع إحسانها ... إن طالت الأيام يوم قصير
.

ففي الشطر الثاني من البيت الأول ورد الطباق في قوله: (طالت الأيام – يوم قصير)؛ ليؤكد سرعة مرور الوقت وانقضائه بصحبة عريب دلالة على ما تضفيه على المجلس من أنس وبهجة.

وتستوقفنا رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي القاسم الكرخي، لنختم بها أدلتنا على شواهد الطباق قوله[2]:

(١) انظر ما ورد في: عيون الأنباء في طبقات الأدباء. لابن أبي أصيبعة. ٣٢٢/١.
(٢) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب. الحصري القيرواني ٣/ ٨٦٢.

(.. وركبت ظهري البر والبحر، وفدى الخير والشر، وصافحت يدي النفع والضر، وضربت إبطي العسر واليسر، وبلوت طعمي الحلو والمر، ورضعت ثديي العرف والنكر).

فطابق بين (البر – البحر)، (الخير – الشر)، (النفع – الضر)، (العسر – اليسر)، (الحلو– المر)، (العرف – النكر). ليصف شخصيته القوية وإدراكه للأمور رغم حداثة سنه.

نستخلص مما سبق أن الكتاب قد استخدموا الطباق في ديباجة الرسائل بعفوية وتلقائية نستثني منهم علي بن الخلف وبديع الزمان الهمذاني؛ لأن العصر الذي انتمى إليه كل منهما كان يحض على التكلف والتقعر في اللفظ، ولا ننكر أن وروده أضاف جمالًا وبهاءً وموسيقى على النص؛ ولكن الوقوع في الإطناب وتكرار المعنى أدى إلى النفور.

* = *

د) <u>المقابلة</u>:

تعد المقابلة سمة بارزة في التلوين الصوتي، فهي إحدى المؤثرات الموسيقية الداخلية التي يلجأ إليها الأدباء لجذب الانتباه وتقوية التأثير ونستطيع أن نعرف المقابلة بأنها[1]:((التضاد في المعنى بين جملتين متتابعتين، فالجملة الثانية تعقب الأولى، ولكنها مناقضة لها، وهي أشبه بالطباق، ولكن بين جملتين)).

(١) التعريف من قبل الباحثة.

ونجد نفحات ونغمات صوتية تجذب القارئ والمستمع في نصوص الرسائل سواء أكانت نثرية أم شعرية. نورد نماذج على ذلك، أولها: رسالة أحد الكتاب إلى صديق له يستزيره[(١)]:

" أنا أسر بموعدك، وأكون جذلًا بانتظارك، وأصبت أجري على الحسرة بما حرمته".

فقابل بين: (كنت قد ربحت السرور بالتوقع لما أحبه)، وبين: (وأصبت أجري على الحسرة بما حرمته)، فقابل بين حالتي الرضا والسرور، وبين الحسرة والألم، وكلاهما يعود بالنفع على الكاتب؛ ففي حالة السرور ينعم بلقاء الصديق، وفي حالة الحسرة ينعم بالأجر والثواب.

ومنه أيضًا ما كتبه أحد الكتاب [(٢)]: " يومنا يوم طاب أوله، وحسن مستقبله، وأتت السماء بقطارها، فحلت الأرض بأنوارها، وبك تطيب الشمول، ويشفى العليل، فإن تأخرت عنا فرقت شملنا، وإن تعجلت إلينا نظمت أمرنا".

فقابل بين التأخير وأثره، وبين التعجيل وأثره، فالأول يفرق الشمل، والثاني يلم الشمل، وذلك في قوله: (فإن تأخرت عنا فرقت شملنا، وإن تعجلت إلينا نظمت أمرنا).

ومن رسائل الجاحظ التي حظيت بالمقابلة رسالته إلى محمد بن عبد الملك نختار منها قوله[(٣)]:" فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب المصر ".

(١) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٤/ ١١٤٦.

(٢) انظر ما ورد في المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٢/ ٥٤٢ وجمهرة رسائل العرب. أحمد صفوت ٤/ ٤٣.

ففي قوله السابق قابل بين حالتي العفو والعقاب، والاستقبال والإعراض، فمحمد يعفو عن المسيء المتعمد، ويصفح عنه، ويستقبله، في حين يعرض ويتجافى عن المسيء الغير متعمد. وهو بذلك يوضح لمحمد أن ما اقترفه من خطأ فهو خطأ غير مقصود لم يقصد به إيذاء أو مذلة، ويلتمس منه العفو والرضا لعله بذلك يلمس شغاف قلبه ويستميله، فيعفو عنه.

وفي نفس الرسالة السابقة نجتزأ منها: أيضًا قوله: " واعلم – أيدك الله – أن شين غضبك علي، كزين صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك، كحياة ذكرى مع اتصالي بسببك ".

فقابل بين (شين غضبك علي، كزين صفحك عني) بين الحالة النفسية لمحمد في حالة الغضب وفي حالة الرضا.

وقابل أيضًا في قوله: (وإن موت ذكري مع انقطاع سببي منك، كحياة ذكري مع اتصالي بسببك)، بين موت الذكر بسبب الفرقة، وبين حياة الذكر بسبب اللقاء. وهي مقابلة تنم عن أدب زاخر، وعلم جم، فجاءت موشاة بالعفوية والانسيابية المطلقة. فجرت في قلمه جريان الماء العذب في الجدول.

ونورد النموذج الأخير، وهو رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى شمس المعالي[1]:

" لم تزل الآمال – أطال الله – بقاء الأمير السيد شمس المعالي، وأدام سلطانه – تعد لي هذا اليوم، والأيام تمطلني بألسنة صروفها، على اختلاف صنوفها، بين حلو استرقني، ومرٍ استخفني، وشر صار إلي، وخير صرت إليه.. ".

(١) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب. الحصري القيرواني ٤١٧/٢.

فقابل بين حلاوة الأيام ومرارتها؛ ليدلل ويثبت أنها لا تبقى على وتيرة واحدة في قوله: (بين حلو استرقني، ومرٍ استخفني)، وبين الشر والخير في قوله: (وشر صار إليّ، وخير صرتُ إليه).

مما سبق نستنتج أن الكتاب استخدموا المقابلة كترنيمة موسيقية عذبة في رسائلهم ليستميلوا المشاعر ويخلبوا الألباب مقارنين بين حالتي العسر واليسر وبين الرضا والغضب، وبين لم الشمل وفراقه؛ لتوضيح ما يضمرونه من محبة وتقدير لهذا الصديق.

* = *

هـ) <u>الاقتباس</u>:

ما هو[1] "إلا ذلك اللقاح الفكري الذي ينتج عن ثقافة دينية عندها يحدث صقل للمعارف والعلوم مع ما تم حفظه من الذكر الحكيم والحديث الشريف، فإذا ورد النص بلفظه سمي اقتباس لفظي، وإذا ورد باتفاق المعني واختلاف اللفظ سمي اقتباس معنوي".

ويلجأ الكاتب إلى الاقتباس على سبيل التوضيح والإفهام، والتوكيد والتقوية.

ومن الرسائل التي وجد فيها الاقتباس،رسالة أبي العيناء على ابن مكرم الذي دعاه للاستزارة ومشاركته مجلس اللهو مع رفاقه " اخسؤوا فيها ولا تكملون "فكتب أبو العيناء رسالته التالية[2]:-

وهذه الآية اقتباس لفظي استغله الكاتب ليبين رفضه لدعوة الزيارة ومشاركة المجلس، وقد أخذ مادته القرآنية من قوله تعالى [3]:

(١) التعريف من قبل الباحثة.

(٢) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصبهاني ٦٤٣/١.

(٣) سورة المؤمنون أية (١٠٨).

﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ اقتباس لفظي والآية[1] في صفة الكفار ومعنى خسأ خسأت الَكَلب فخسأ، أي زجرته مستهينًا به، واستخدمه لتقليل شأن ابن مكرم، ورسالة ابن مكرم إلى أبي العيناء يدعوه لاستزارته ومشاركته مجلس لهو لم تخل من الاقتباس، يقول فيها:

" عندنا سكباج يعرف المجنون، وحديث يطرب المحزون، وإخوانك الملحدون، فلا تعلوا على وائتون).

ففي قوله: (فلا تعلو علي وائتون) اقتباس لفظي استقاه من الذكر الحكيم على سبيل التوضيح والترغيب وسرعة الحضور.

استعار مادته الأدبية من قوله تعالى[2] ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

ومن الاقتباس القرآني ما ورد في رسالة أبي سعيد بن نوقة إلى أبي مسلم بن بحر، يقول فيها[3]:

إن كنت تأكل ما حضر ... فاحُضرْ فإنك منتظرْ
والساعة اقتربتْ لفر ... طِ الجوع وانشق القمرْ
ورسولنا بكتابنا ... هذا الظريف أبو بكرْ

وبإذنه حركتُ منه الكاف كيلا ينكسر[4].

(١) انظر ما ورد في: المفردات في غريب القرآن أبي القاسم الحسين الأصبهاني ص١٤٨ مادة (خسأ) تحقيق محمد سيد الكيلاني دار المعرفة بيروت – لبنان د.ط، د. ت.

(٢) سورة النمل أية (٣١).

(٣) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء: للراغب الأصهاني ٦٤٢/١.

(٤) انظر ما ورد في: المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الأصبهاني ص٢١٦٤، مادة (شق) والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لعبد الباقي.

فورد الاقتباس في قوله: (والساعة اقتربت)، (وانشق القمر). استقاه من قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[1]، فعمد الشاعر إلى تغيير لترتيب الآية حتى يحقق شيئين، أولهما: المحافظة على الوزن والقافية، والثاني: يُوضح للصديق أثر التأخير وإصابتهم بالجوع الشديد.

وندرة استخدامهم للاقتباس في نظري يرجع إلى الموضوع ذاته؛ فالاستزارة خُصت لمجالس اللهو والأنس.

ومن خلال الدراسة السابقة تعرفنا على نوعية من يحضر المجلس. وإن استثنينا علي بن الخلف في استخدامه الألفاظ الإسلامية (النداء للصلاة) التي حولها إلى مناداة للعهر والفسق،وهي رسالة طويلة نجتزئ منها قوله:

(.. وقام على منابر السرور يخطب ابنه الكرم لأبناء الكرام، وينادي بأعلى صوته: حي على المُدام).

لم يتورع الكاتب[2] عن استخدام ألفاظ إسلامية، وتحويلها إلى ألفاظ تشير إلى المدام وشاربيها، فبدلًا من المناداة للصلاة وترك الملاهي ينادي إلى شرب المدام ومعاقرتها مع أصحابه، وذلك نجده في قوله (وقام على منابر السرور، حيَّ على المدام).

من خلال ما سبق نستطيع القول: أنه على الرغم من ندرة استخدامهم للاقتباس إلا أنهم استطاعوا أن يوظفوه لخدمة أغراضهم، ونجحوا في ذلك. أما رسالة علي بن الخلف فلا أعتقد إلا أنه أخفق إخفاقًا شديدًا، فلا يجوز استبدال لفظ إسلامي بلفظ محرم يدعو جهرًا لمعاقرة الخمر والمجون.

* = *

(١) سورة القمر آية (١).

(٢) انظر أيضًا ما ورد في رسائل الاستزارة ووصف الأطعمة والمشروبات.

و) التضمين:

عرفه العلماء في العصر الحديث مع تغيير مسماه إلى التناص: (اشتق من مصطلح النص بكل ما يحمله هذا الأخير من معاني، والتناص مفهوم يدل على وجود أصلي في مجال الأدب أو النقد مباشر أو غير مباشر على النص الأصلي عبر الزمن)[(١)].

واختلف في قضية التضمين هل تعد إيجابية أم سلبية، وأشار إليها فيصل الأحمر في كتابه معجم السيميائيات[(٢)] بقوله: " في قضية التناص تكمن في أن الأولين كانوا ينظرون إليها عمومًا على أنها مأخذ سلبي، ولا أدل على عكس مقصد المعاصرين الذين ينظرون إلى القضية نفسها على أنها من جماليات الخطاب الشعري".

من خلال ما سبق أستطيع القول أن ثقافة الكاتب أو الشاعر تجعله يختار ما يناسبه من أبيات شعرية أو أمثلة كروافد لنصوصه الأدبية تدعمها فكريًا في توضيح معنى وإزالة لبس وتقريب وتوضيح للأذهان، بالإضافة إلى التوكيد والإثارة، وقد يذكر الأديب اسم الشاعر، وقد يهمله، فإن ذكر اسم الشاعر عد إيجابيًا، وإن أهمله عد سلبيًا؛ لأنه يوقع المستمع في حالة اللبس، فينسب أبياتًا له وهي ليست كذلك.

نورد بعض النماذج على ذلك:-

أولًا: الأمثال:-

وعرف ابن الأثير المثل بقوله: " وحد المثل: هو القول الوجيز المرسل ليعمل عليه "[(٣)].

---

(١) انظر ما ورد في معجم السميائيات، فيصل الأحمر، ص١٤٢، منشورات الاختلاف، الجزائر – العاصمة – الجزائر، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٢) انظر ما ورد في المرجع السابق ص ١٥٤، ١٥٥.

(٣) انظر ما ورد في: الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد، تحقيق أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ط٢، ١٤٠٤هـ، ط٢، ١٤٠٤هـ منشورات دار الرفاعي ١٩٨٤م، لم أعثر على تفسير لمعنى (حوصلي وطيري).

ورد المثل في رسالة الصاحب إلى أبي الحسن العلوي يقول فيها[1]:-

(لم ملت في العود إلى التقصير كما يقال حوصلي وطيري)

.

فاستخدام الشاعر للمثل أراد منه تطعيم النص بنكهة خاصة، توضح المعنى وتزيل الإبهام.. ووروده بعفوية تشير إلى ما يتمتع به من علم وثقافة".

ثانياً: الشعر:-

ومن الأشعار التي نسبت إلى أصحابها ما تضمنته رسالة الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب يقول فيها[2]:

(أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر وبعده) كأنه قول كثير:

وإني وتهيامي بعزّة بعدما تخلّيت عما بيننا وتخلّت

.

كالمرتجي ظلَّ الغمامةِ كلما تبوّأَ منها للمقيلِ اضمحلّتِ

.

فاستطاع الشاعر أن يدعم فكرته التي جاءت في النص لتعبر عن مدى تشوقه لزيارة صديقه، وقد اصطبح في يوم دجن لم يمطر، ويدعوه للزيارة.

ومن الرسائل التي أورد صاحبها بيتًا شعريًا لا نعرف من قائله ما ورد في رسالة بديع الزمان الهمذاني لأبي القاسم الكرخي، نقتطف منها قوله[3]:

---

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: الراغب الاصبهاني. ١/ ٦٤٤.

(٢) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٢ / ٥٠٠.

(٣) انظر ما ورد في: المصدر السابق ٤ / ٨٦٣.

".. ولكني أقول:

إنيكن تركي لقصدك ذنبا ... كفى ألا أراك عقابا)

.

ورسالة الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات تضج بالشواهد النثرية والشعرية فحينًا يذكر اسم صاحبها، وحينًا يهمله – وقد وردت النصوص لتدعم رأيه وتقويه، وتوضح لمحمد بن عبد الملك ما التبس عليه من الأمر.. نقتطع من الرسالة قوله[1]: " فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امرأ أمسى وأصبح سالمًا ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

.

وقال الآخر:

ومن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

.

.... ولذلك قال عُيينة بن حِصن بن حُذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيرًا لي منك، رهبني فاتقاني، وأعطاني فأغناني..).

فالشواهد السابقة تثبت أن الكتاب لجؤوا إلى التضمين لدعم فكرة أراد أن يوصلوها إلى صديق. وتزيين كتاباتهم بالشواهد الشعرية والنثرية تدل على غزارة الثقافة وسعة الاطلاع فهذا ما لمسناه خلال دراستنا للنصوص.

* = *

(١) انظر ما ورد في: زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٢/ ٥٤٢ وجمهرة رسائل العرب. أحمد صفوت ٤٣/٤.

ثانيًا النثر:-

ونجد تشابهًا لفظيًا ومعنويًا بين رسالتي أحمد بن يوسف الكاتب وإسحاق بن إبراهيم الموصلي.

فكتب أحمد بن يوسف إلى أحد أصدقائه في يوم دجن يستزيره:

(يومنا يوم ظريف النواحي، رقيق الحواشي، قد رعدت سماؤه وبرقت، وحنت وارجحنت، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تفردنا منك فنقل، ولا تنفرد عنا فنذل، فإن المرء بأخيه كثير، وبمساعدته جدير).

وكتب إسحاق بن إبراهيم الموصلي إلى أحد أخوانه يستزيره:

(يومنا يوم لين الحواشي، وطيء النواحي، وسماؤنا قد أقبلت، ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تفردنا فنقل، ولا تنفرد عنا فنذل).

فانظر أوجه التشابه المعنوي بينهما:

الكاتب أحمد: يومنا يوم ظريف النواحي.

الكاتب إسحاق: يومنا يوم وطيء النواحي.

الكاتب أحمد: رقيق الحواشي.

الكاتب إسحاق: لين الحواشي.

الكاتب أحمد: قد رعدت سماؤه وبرقت وحفت وارجحنت.

الكاتب إسحاق: وسماؤنا قد أقبلت، ورعدت بالخير وبرقت.

وفي بقية الرسالتين نجد أنهما قد تطابقتا تمامًا في اللفظ والمعنى.

وهذا يجعلنا نلقي سؤالًا هل تعد سرقة أدبية، أم أن لرسائل الاستزارة طريقة خاصة في انتقاء اللفظ المعبر عن المناسبة. وفي رأيي أن الكاتب إسحاق الموصلي تأثر بقلم أحمد؛ لأن أحمد يسبقه زمنيًا، فقد عاش في

ذروة انتعاش الكتابة في العصر العباسي الأول، ولعل هذا الأثر قد امتد إلى التقليد والمحاكاة ثم النقل الحرفي للرسالة.

مما سبق نستنتج أن الكُتّاب طعموا رسائلهم بالتضمين رغبة في إحداث مزيد من قوة التأثير وشد الانتباه.

* = *

رابعًا :دراسة الصورة الفنية .

أ) التشبيه .

ب) الاستعارة .

جـ)الكناية .

أ) التشبيه:

يتميز العصر العباسي بقفزة حضارية لفتت الانتباه، وحركت الحواس، وأشعلت المشاعر، وألهبت الأفئدة، وأطربت العيون، فما كان من الكاتب أو الشاعر إلا أن يعمد إلى عدسته الفكرية فيصور هذه الطبيعة مستغلًا في ذلك ما وهبه الله من إبداع وموهبة وابتكار، مستعينًا بأدوات فنية هي: التشبيه، الاستعارة والكناية.

" فالصورة قبل كل شيء عبارة عن مصدر حقيقي للتفصيل في وصف الأشياء، يظهر العربي من خلالها حدة عجيبة في المعاينة، فطالما مدحت قدرته على نقل الظواهر الحسية نقلًا دقيقًا"[(١)]، واعتماد الشاعر والكاتب على التشبيه يهدف إلى غاية فنية أشار إليها الجاحظ في كتابه البيان والتبين بقوله: " للتشبيه روعة وجمال، لإظهاره الخفي، وتقريبه البعيد، يكسب المعاني رفعة ووضوحًا ويكسوها نبلًا وفخرًا وضعة وخسة، متشعب الأطراف، دقيق السياق"[(٢)].

وانقسم كتاب رسائل الاستزارة، يستغلون ألوان الطبيعة والبيئة لوصف بيئتهم وحضارتهم. " يستغلون الألوان بطريقة منسجمة يكون موضوعها رسولًا أمينًا بين وجدان الشاعر وقارئه "[(٣)].

على سبيل المثال انظر ما ورد في رسائل الاستزارة، ووصف مجلس لهو وشرب، منها رسالة شعرية للقراطيسي إلى أحد أصدقائه، يقول فيها[(٤)]:

---

(١) انظر ما ورد في: دراسات شعرية القصيدة العربية ص١٢١، لريناتة ياكوبي، ترجمة موسى ربايعة، إربد مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، ط، ١٤١٥هـ ٠ ٢٠٠٥م.

(٢) انظر ما ورد في: البيان والتبين للجاحظ: محمد علي صباغ، ص٢٣٩، بيروت، المكتبة العصرية، ط ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٣) انظر ما ورد في: الصورة اللونية في الشعر الأندلسي، صالح ويس، ص٩٣، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣هـ - ٢٠١٤م.

(٤) انظر ما ورد في الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ٨٩/١٩.

١- وقينات من الحور كأمثال الطواويس

" إن وفرة مصادر اللون في تشكيل الصورة تحقق للشاعر استخدامًا أفضل للون في التعبير، فضلًا عن أنها تظهر قدرته على التعامل مع اللون، وهو يشكل صورته بعناية ووضوح "[(١)] فتشبيه القينات بالطواويس صور لنا عدة ألوان مختلفة يهيمن عليها اللون الأخضر بشدة، ويعطي مساحات للألوان بعملية اندماج تضفي روعة وجمالًا، وهي الألوان التالية (الأسود، الذهبي، الأزرق..) فتخيل عندئذ القينات وهن رائعات الجمال قد ارتدين ثيابًا ملونة مزركشة تدل على حسن الهيئة والجمال، وأضاف إلى حسنهن وروعتهن الدلال والتبختر، وهذا مما يسلب الرجل فؤاده ويجعله يهيم بهن ناسيًا ومتناسيًا ماله وما عليه في مجلس حفه الطرب والأنس.

وإذا أردنا أن نحلل الألوان الواردة فاللون الأخضر[(٢)] (لون الحقول الخصبة، لون الأمل والحياة المقبلة الباعثة على الطمأنينة والراحة.. كما أنه رمز الحياة والتجدد والانبعاث الروحي والربيع.. " واللون " الأصفر من الألوان الفاتحة القريبة من النفس، وهو لون تفكيري ذو أبعاد نفسية عميقة ورائعة"[(٣)] و " اللون الأزرق يدل على الحب فهو اللون الذي يوحي بالسلام ويرى أنه الأكثر تهدئة للنفس".، واللون الأسود[(٤)] " يرمز للحكمة والاتزان لذلك اتخذه كثير من رجال الدين شعارًا لهم".

فارتداء القينات هذه الثياب الفاخرة المزركشة يعطينا انطباعًا عن الحياة الاقتصادية وحالة الترف والبذخ لأصحاب النفوذ والرياسة، وجمال مظهرهن الخارجي، وما تمتعن به من غنج ودلال.

(١) انظر ما ورد في الصورة اللونية، صالح يس، ص٩٤.
(٢) انظر ما ورد في الصورة اللونية في الشعر الأندلسي. صالح يس، ص١٢٦.
(٣) المصدر السابق نفسه ص١٢٧.
(٤) المصدر السابق نفسه ص١٢٨.

ومثال آخر رسالة العطوي إلى أبي العباس أحمد بن الحسين العلوي يصف مجلس اللهو والأنس[1]:

١- مجلس كالرياض حسنًا ليس قطب السرور واللهو فيه ولكن .

فالشاعر هنا " استحضر معه كل ما يحتاج إليه من ألوان بهيجة، بحيث يستطيع أن يجعل من أبياته لوحة نضرة تجذب الأنظار وتخطف الأبصار.. ففي الطبيعة اخضرار واحمرار واصفرار وفيها أوراق خضرة نضرة غضة مياسة، وفيها نور وأزاهير وشذا وعبير، وفيها حفيف الغصون وتغريد الطيور، وفيها مياه صافية فضية بالضحى عسجدية عند الأصيل، إنها الحياة نفسها بوجهها المشرق الندي الذي يجعل الصالح تسبيحه حمدًا، وترنيمه رجاء، والذي يجعل منه الطالح ملاعب سكر ومضامير انحراف"[2]، فتشبيه الشاعر المجلس بالرياض عكس صورة رائعة الجمال عن الطبيعة الغناء التي تحيط بالمجلس بغض النظر عما يحتويه" فاللون الأخضر الذي مثلته الرياض كانت مشاركته لتعمق الإحساس الإنساني لدى الشاعر بالحياة، فالخضرة عنصر مهم لإقامة الحياة والتعبير عنها "[3].

ومن الرسائل النثرية التي ورد فيها التشبيه: رسائل علي بن الخلف كقوله[4] (كتبت أطال الله بقاء سيدي – وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني والطير في الأوكار، والأنوار تهبط كالتيار..).

" ورد الكاتب عدة ألوان مستوحاة من البيئة لرسم لوحته الفنية، فأشار إلى الخصب والنماء والخضرة باستخدامه لفظ (بستاني)، وإلى النقاء والطهارة والسكينة والصفاء في قوله: (والطير) الذي يرمز في

(١) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠ / ٥٩ – ٦٠.
(٢) انظر ما ورد في الصورة اللونية في الشعر الأندلسي صالح ويس ص٩٣.
(٣) المرجع السابق ص٩٧.
(٤) انظر ما ورد في صبح الأعشى: القلقشندي ٩/ ١٥١.

الغالب إلى اللون الأبيض، ثم أضاف لونًا آخر وهو لون الأنوار نباتات صفراء ذات رائحة ذكية فشبهها بالتيار دلالة على نضارتها وقوتها وكثرتها، فلفظة (كتيار) أظهرت القيمة الفنية للون، وأثره في تشكيل الصورة الذي أعطى انطباعًا إيجابيًا عن المنظر الخلاب للبستان، وما يحيط به من جمال أخاذ (نباتات وطيور وهواء عليل).

وفي رسالة أخرى يقول [(١)]: " قد انتظم لنا – أطال الله بقاء سيدي – مجلس رقت حواشيه وتبسمت راحه عن حبيب كلآلئ على ذهب.. " استخدم الشاعر عدة أدوات تعينه في رسم لوحته الفنية بدأها بالفعل الماضي (انتظم) الذي يدل على حدوث الشيء وانتهاء كماله، ثم استخدم أيضًا الفعل الماضي (رقت)، (تبسمت) لبناء تشكيل صورة فنية قائمة على الاستعارة، حيث أضفى على الراح الابتسامة والحركة، ثم شبهها بلآلئ على ذهب، فاستعان بمشتقات اللون الأبيض[(٢)] الذي يرمز إلى النقاوة والصفاء والوضوح، وهو اللآلئ. ومشتقات اللون الأصفر، وهو (الذهب) وهو " لون تفكيري ذو أبعاد نفسانية بعيدة عميقة ورائعة، .. ومع هذا فإنه يعني التفاعل والمشاركة.." وهو " أكثر الألوان إضاءة ونورانية.. وأهم خصائصه اللمعان والإشعاع وإثارة الانشراح.. "[(٣)] ليضيء مجلس الشرب، ويبعث الضياء الذي يكمل العملية التشكيلية في بناء الصورة الفنية.

ويظهر في رسائل الاستزارة خاصية وصف المكان، وقد رأينا سابقًا أثر اختيار اللفظ على تحديد نوع الرسائل وتحديد المصطلحات الخاصة بالبيئة وما يحيط بها.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) للاستزادة العلمية انظر ما ورد في الصورة اللونية في الشعر الأندلسي، صالح ويس، ص١٢٦.

(٣) المصدر السابق نفسه ص٩٩.

وعندما يدعو الكاتب صديقه فإنه يعمد إلى وصف المكان بدقة متناهية " ومن هنا فإن جمالية المكان تعتمد في تجسيدها الطريقة الفنية التي يقدم بها المكان، تلك الطريقة التي تربط بين المكان والدلالات المحيطة به، سواء أكانت نفسية، أم اجتماعية، أم اقتصادية، أم جمالية مكانية وتعني أن اكتساب أبعاد رمزية يكون الوصف فيها غاية الإفادة والنفع معًا، لأن الجمالي هو الممتع الجميل"[(١)].

نستشهد على ذلك استزارة في بستان لعلي بن خلف يقول فيها[(٢)]:

" كتبت أطال الله بقاء سيدي – وقد غدوت في هذا اليوم إلى بستاني، والطير في الأوكار، والأنداء تهبط كالتيار، والليل مشتمل على الصباح،.. فمن أشجار كالأوانس، في ريحاني الملابس، حالية من موشَّع الزهر والثمر، بأنصع من الياقوت والجوهر، كأنما تحفَّلت لاجتلاء عروس، أو معاطاة كؤوس، ما بين نخيل قد نشرت عذب السُّندس على ذراها، وأطلعت طلعًا كالخناجر غشيها صداها،.. ومن ريضان زاهية بنشرها، وقضبها مختالة في ملابس زهرها، ونرجسها كعين محبٍّ حدَّق إلى الحبيب.. ".

والرسالة طويلة حظيت بتوافر التشبيهات والكنايات والاستعارات، والمقطع السابق يحفل بالعديد من التشبيهات كقوله: (والأنداء تهبط كالتِّيار) وهو وصف دقيق لحالة الجو الضبابية التي تنشر الندى، فيفوح عبق الأشجار والأزهار، ووصفه للندى بالتيار إنما أراد به شدة هطول قطرات الندى التي تضفي على الجو لمسة سحرية من الجمال والروائح التي تعبق شذى وروعة.

وقوله (حالية من موشّع الزهر والثمر، بأنصع من الياقوت والجوهر، كأنما تحفلت لاجتلاء عروس أو معاطاة كؤوس).

---

(١) انظر ما ورد في ملتقى المرأة والنص، شعرية الذات المكانية في الخطاب السردي النسائي، منال عبد العزيز العيسى، ص٢٥٤، النادي الأدبي بالرياض، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(٢) انظر ما ورد في صبح الأعشى: القلقشندي ٩ / ١٥٢.

صورة فنية مركبة تبرز جمال وألوان الطبيعة من زهر وثمر وقوله: (ما بين نخيل نشرت عذب السُّندس على ذراها، وأطلعت طلعًا كالخناجر غشيها صداها).

فهو وصف دقيق للنخيل، وما يحيط به من خضرة زادت البستان جمالًا وبهاء.

وقوله (ومن ريضان زاهية بنشرها، وقضبها مختالة في ملابس زهرها، ونرجسها كعين محب حدّق إلى الحبيب..).

تتجلى القدرة الفائقة على الوصف والحس الفني للكاتب " فمن أدوات المكان الشعرية الرؤية الذاتية، وهي " التي تعنينا في حديثنا عن الشعرية المكانية باعتبار أن المكان ينهض وفق هذه الرؤية بكل قيمة دلالية، ويتحول إلى لوحة لمشاعر الشخصية الواصفة وعواطفها ونفسيتها وأفكارها، وغالبًا ما يتم تغليف المكان بسمات رومانسية.."[1].

ففي الصورة السابقة تحول النرجس إلى إنسان عاشق حدق إلى الحبيب، وذلك ليثبت ما يتمتع به البستان من مناظر رائعة وخلابة تبهج القلب وتسر العين، وتهدي أنفاس عبقة بروائح نباتات ذات ألوان وروائح متعددة.

وهذا الوصف يوصلنا بالتالي إلي المستوى الاجتماعي والاقتصادي الذي حظى به الكاتب، كما تبين من ناحية أخرى أماكن انعقاد مجالس اللهو والسمر، فلم تقتصر على البيوت والقصور والمراكب، بل تعدتها إلى البساتين التي توفرت فيها الطبيعة الغناء.

(١) انظر ما ورد في ملتقى المرأة والنص، شعرية الذات المكانية في الخطاب السردي النسائي، منال العيسى. ص٢٥٦.

وإذا عرجنا على رسالة أخرى في وصف المكان، هي رسالة أبان إلى والده حمدان بن أبان، يقول فيها[1]:

يا أبي لا ترث لي من غيبتي ... أنا في خيرٍ و لهوٍ ودعةْ
.
صرت من حبس دنا مطلقا ... ومن الضيق إلى كل سعةْ
.
بيت خيش ونبيذ سائغ ... وحيال الباب مني مشرعةْ
.
ومعي كل يوم مسمع ... حاذق يطربني أو مسْمعةْ
.
وندامي كمصابيح الدُّجى ... كلُّهم يأخذ كأساً مترعةْ
.
لا يبالي من لحا في شربها ... أبدًا حتى يوارى مصرعةْ
.
وسخول خمسة أو ستة ... فإذا قلوا فعندي أربعةْ
.
وخواب هادرات هدرها ... ودساتيجملأى مترعةْ
.
ومغن غرد يطربني ... فإذا شئت تغنيت معهْ
.

فالكاتب أورد التشبيه في قوله (وندامى كمصابيح الدجى) فشبه الندامى بضياء وجههم ونوره بمصابيح الدجى.

وقد استرسل الكاتب في وصف دقيق لحالته ومجلس لهوه وندمائه. وهذه القدرة على الوصف تدل على البراعة الأدبية عند الكاتب.

(١) انظر ما ورد في أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق للصولي ص٦٣.

نستنتج مما سبق أن ورود التشبيه أضاف جمالًا للرسالة، وأثبت المقدرة الفنية والمهارة عند الكاتب في نقل أحاسيسه، فأدبه - شعرًا كان أم نثرًا- كان يشبه آلة تصوير تنقل لنا صورًا عن الطبيعة الخلابة، والمناظر الرائعة، والجلسات التي ارتادها كبار الشخصيات من خلفاء ووزراء وكبار الحاشية وأدباء وحتى معدومي الدخل والمهملي الذكر كانوا يرتادون المجالس، وهذا أثر في الحركة الأدبية إيجابًا حيث أدى تطور الموضوعات الشعرية والنثرية والعطاء الأدبي؛ وسلبًا لأن المجالس كانت بؤرة فساد يرتادها أهل الفسق والفجور والملحدون وضعاف النفوس، وهذا صور الفساد الخلقي والضعف الديني الذي استشرى في ذلك العصر.

* = *

ب) الاستعارة:

لون من ألوان البلاغة يستعرض فيها الأديب مهارته الفنية وقدرته على الإبداع والابتكار والتجديد، ويلجأ الأدباء في نحت الاستعارة كلوحة فنية بديعة أودع فيها مواهبه وحسه الفني؛ ولكن الاستعارة لها دربان: فإن سار الأديب بدرب لا توعر فيه ولا تكلف ولا مشقة كان ذلك أسرع للتقبل والترحيب بفنه ورسوماته الفكرية، وإن شق دربه التكلف فأصابه إعياء المشقة في نحت الصورة مستعينًا بالحشو الزائد والمشاعر الباهتة لن يجني الباحث إلا الشعور بالملل والسأم والضجر. وكتَّاب الرسائل مع بداية ظهور فن رسائل الاستزارة في العصر العباسي نلمح في كتاباتهم رقة الألفاظ حينًا وجزالتها حينًا آخر، حيث يرخي الكاتب ظلال إبداعاته الفكرية، ويرسم لوحاته الفنية بطريقة مشوقة تجذبه. وكثيرًا ما ترد الاستعارة في وصف المجلس والبيئة المحيطة به.

على سبيل المثال لا الحصر انظر رسالة الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له يدعوه لحضور مأدبة، يقول فيها:[1] (نحن في مأدبة لنا، تشرف على روضة، تضاحك الشمس حسنًا، قد باتت السماء تكللها، فهي شرقة بمائها، حالية بنوارها،..) فاستطاع الكاتب أن يرسم لوحة فنية زاهية بألوانها محددًا مكان اللقاء روضة غناء ذات طبيعة خلابة، فالسماء صافية، والمياه رقراقة عذبة، والشمس تشارك الروضة الجمال، والبهاء يكتنفها نورا قد بزغ جماله وفاح أريجه.

ومنه أيضًا رسائل الاستزارة في وصف الأطعمة والمشروبات مثل رسالة الوزير العباسي إلى نديم له[2]:

أيها المكوفي شيخي ... قم بنا نحو الدُّوَيْرة

قلنا فضلةُ سكبا ... ج لدينا في قُديرة

(١) انظر، فنون النثر في الأدب العباسي محمود صالح ص١٠٥.

(٢) انظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني ١ / ٦٤٣.

ومـــــرامٌ مـــــن دم الكـــــر مـــــة باتـــــتْ في ذُكَيْـــــرة

وإذا مـــــا ارتاحـــــتِ الـــــنفسُ مـــــن الـــــراح قُطَيْـــــرة

فضـــــحيعي ســـــاعدا عمـــــرو وشـــــيخي مـــــع عمـــــيرَة

فقوله (ومدام من دم الكرمة باتت في ذكيرة)، حيث استعار اللون الأحمر لوصف النبيذ الأحمر، وذلك في قوله (دم الكرمة)، وإن كان اللون الأحمر يرمز إلى السلبية، والدم يمثل القتل، فإن الكاتب استعار اللون الأحمر هنا ليبين مدى شدة كثافة النبيذ الأحمر وتركيزه، ومدى ما يحدثه في الشارب من ذروة النشوة واللهو القاتل، وهنا يتضح لنا تعدد ألوان النبيذ في مجالس اللهو، وتنوع مصادره، وهذا أيضًا يشير إلى تساهل الخلفاء في ذلك العصر بشرب النبيذ وعدم تحريمه.

وتلقانا الاستعارة أيضًا في رسائل التأخر عن الاستزارة كقول كشاجم إلى أحد أصدقائه[1]:

تـــأخرت حتـــى كـــدت الرســـول وحتـــى ســـئمت مـــن الانتظـــار

وأوحشـــت إخوانـــ لك المســـعدين وفجعـــتهم بشـــباب النهـــار

وأضـــرمت بـــالجوع أحشـــاءهم بنـــار تزيـــد علـــى كـــل نـــار

(١) انظر ما ورد في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهاني ١ / ٦٤٤.

فقوله: (وفجعتهم بشباب النهار) استعارة حدد فيها زمن المجلس (ليلًا) وبزوغ النهار يدل على أنهم كانوا يتسامرون ويلهون في مجلس عقد مساءً، وظلوا ينتظرون قدوم الصديق حتى بزغ النهار، وهو أيضًا كناية عن التأخير الشديد وأثره على الجلساء. أما قوله (وأضرمت بالجوع أحشاءهم بنار تزيد على كل نار)، فالشارب عادة يتناول الطعام بعد شربه للنبيذ، وعدم تناولهم الطعام أصابهم بألسنة الجوع القارصة التي تدل على مدى ما عانوه من جوع وملل في انتظار مجيء الصديق.

فالكاتب حشد ألوان متعددة ليظهر الصورة اللونية والحركة، فالنهار من مشتقات اللون الأبيض الذي يرمز إلى النقاء والوضوح والطهارة، والفعل (أضرمت نار) من مشتقات اللون الأحمر الذي يدل على شدة الانفعال.

وانظر أيضًا من الاستعارات الرائعة ما ورد في رسائل علي بن خلف يدعو أحد أصدقائه[(١)].

ورسائل علي بن الخلف تزخر بالاستعارات نورد على سبيل المثال ما كتبه[(٢)]:

(.. فكان مولاي أول من جرى إليه ذكرى، ووقع عليه طرف فكري؛ لأنه الساكن في فؤادي).

فقوله (ووقع عليه طرف فكري) استعارة حيث حذف المشبه به (الحبل)، وأتى بشيء من لوازمه، وذلك ليثبت المكانة الرفيعة للمتلقي وعدم نسيانه.

وفي قوله: (لأنه الساكن في فؤادي)، حيث تحول الفؤاد إلى سكن يوفر الطمأنينة والراحة، ويحل عليه الصديق ضيفاً مرغوبًا به،

(١) انظر ما ورد في، صبح الأعشى القلقشندي ٩ / ١٥١.
(٢) انظر ما ورد في: صبح الأعشى: القلقشندي ٩ / ١٥٢ – ١٥٤.

وهي أيضًا استعارة مكنية، حيث حذف المشبه به (السكن – البيت) وأتى بشيء من لوازمه وهو السكن.

واستخدام الكاتب للاستعارة؛ ليبني صورة استعارية تحدث أثرًا أقوى انفعالًا وأشد انتباهًا، وتوضح مكانة الصديق.

وله في مثله[1]:

(هذا اليوم –أطال الله بقاء سيدي – يوم أعرس فيه الجو بالجارية البيضاء..). فأضفى على الجو الحركة والحياة؛ فشبهه بالإنسان، فحذف المشبه به، وأبقى على شيء من لوازمه (أعرس)، وكذلك استعان بالاستعارة والكناية في آن واحد في قوله: بالجارية البيضاء، ويقصد السحب البيضاء المشبعة بالأمطار.

ومثله: رسالة بعض الكتاب إلى أخ له: (إن رأيت أن تحدد لي ميعادًا لزيارتك، أتقوته إلى وقت رؤيتك، ويؤنسني إلى حين لقائك، فعلت إن شاء الله).

فمخيلة الكاتب حولت الشيء المعنوي الذي هو الوعد في قوله (ميعادًا) إلى شيء ملموس أشبه بالطعام (القوت) في قوله: (أتقوته)، وإنما أراد بذلك أن يشرق الأمل فيحظى برؤية صديقه.

ومنعًا للإطالة نكتفي بهذا القدرمن النماذج التي كشفت عن القدرة الفنية للكُتّاب.

* = *

(١) المصدر السابق نفسه ٩ / ١٥٢.

جـ) الكناية:

" المراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به ويجعله دليلًا عليه" [(١)]. فالكناية رمز أدبي بلاغي يسعى إلى غاية مرتبطة بالوصف من أجل إحداث التأثير في المتلقي وتقريب البعيد، وقد انتشرت الكناية في رياض الرسائل يعب منها الكاتب بعفوية وتلقائية، نستشهد على ذلك برسالة الوزير العباسي إلى نديم له[(٢)]:

١- أيها الكوفي شيخي قم بنا نحو الدويرة .

٢- فلنا فضلة سكبا ج لدينا في قديرة .

٣- ومدام من دم الكر مة باتت في ذكيره .

يستغل الوزير العباسي أحد مشتقات اللون الأحمر (دم) لتحديد اطار التشكيل الذي تقع فيه الصورة باللون الأحمر محولًا إياه من دلالة سلبية ترتبط بالعنف والموت والدمار إلى دلالة إيجابية ترتبط بالشدة والتركيز، وبدأ تشكيل اللوحة الفنية باستخدامه للاستعارة في قوله (ومدام من دم الكرمة)، حيث حذف المشبه به وهو الكائن الحي وأبقى على شيء من لوازمه وهو (الدم)، وأراد من خلال هذه الكناية أن يبين نوع النبيذ وشدة تركيزه لإحداث تأثير قوي في نفس المتلقي تدعمه الإثارة والتشويق والترغيب بحضور المجلس.

(١) انظر ما ورد في دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ص٥٢ وللاستزادة العلمية انظر ما ورد في الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٤٠٧.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصبهاني ١ / ٦٤٣.

ومنه رسالة كشاجم إلى أحد أصدقائه[1]:

تـــأخرت حتـــى كـــدت الرســـول ... وحتـــى ســـئمت مـــن الانتظـــار

وأوحشـــت إخوانـــك المســـعدين ... وفجعـــتهم بشـــباب النهـــار

وأضـــرمت بـــالجوع أحشـــاءهم ... بنـــار تزيـــد علـــى كـــل نـــار

رصد الشاعر أحد مشتقات اللون الأبيض واللون الأحمر لتصوير أثر تأخير الزيارة، فاعتمد لذلك صورتين الأولى حدد فيها أن زمن مجلس اللهو ليلًا، وذلك بقوله: (وفجعتهم بشباب النهار)، كما استخدم أحد مشتقات اللون الأبيض (النهار) الذي يرمز للنقاء والصفاء والوضوح، وأضفى على النهار الحركة والحياة بإضافته لفظ (شباب)، وذلك ليبين لصديقه ساعات الانتظار، وساعات الليل الطويلة وهم ينتظرون قدومه إلى أن لاح نور النهار.

ثم ينتقل إلى الصورة الثانية مستغلًا أحد مشتقات اللون الأحمر (نار)، (أضرمت)؛ ليبين أثر الانتظار والتأخير، فيستخدم الفعل (أضرمت) على سبيل الاستعارة المكنية وحيث حذف المشبه به وأبقى على شيء من لوازمه وهو حسي مدرك أضافة إلى شيء معنوي (الجوع)، وهنا نجد ارتباط الصورة البصرية باللون لإحداث مزيد من الإثارة والانفعال، وتحول اللون إلى لغة انفعال وشعور، وتكرار (نار) وهو أحد مشتقات اللون الأحمر ليثير انتباه المتلقي وتصوير ما اعتراهم من جوع قارص وهم ينتظرون مجيء الصديق.

وانظر على سبيل المثال رسالة العطوي إلى صديق له يدعوه للزيارة ويصف المجلس[2].

(١) المصدر السابق نفسه ١/ ٦٤٤.

(٢) انظر ما ورد في الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني ٢٠ / ٦٠.

يومنا طيب به حسن القصف وحث الارطال والكاسات .

ما ترى البرق كيف يلمع فيه ورشاشًا يبل في الساعات .

فالأبيات السابقة استخدم الكناية (.. حسن القصف، البرق كيف يلمع فيه.. (ظبي غرير..)، وذلك ليصف ذروة نشوة اللهو، والشرب المبالغ فيه، وما يحتويه المجلس من نبيذ صاف راق وغلام يجيد الغناء، وهذا المحور الذي يدور حوله مجلس اللهو والملذات.

ومن الكنايات التي وردت في الرسائل رسالة الحسن بن سهل إلى بعض أصدقائه يدعوه كي يصطبح معه في يوم دجن غامت فيه السماء[1].

(.. وما أصبحت أمنيتي إلا في لقائك ـ فليت حجاب النأي هُتِك بيني وبينك، ورقعتي هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتحيفه، ..) فاستخدم الكناية في قوله: (فليت حجاب النأي هتك بيني وبينك..) كناية عن الفراق والبعد.

وكذلك استخدمها في قوله (.. وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي..) كناية عن الخمرة وأثرها على العقل.

ومنها أيضًا ما كتبه العطوي[2] إلى صديقه أحمد بن الحسين العلوي يصف مجلس اللهو وانقطاع النبيذ.

١- مجلس كالرياض حسنًا ليس قطب السرور واللهو فيه ولكن . .

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٢/٥٠٠: الحصري، ،تاريخ العصر العباسي الأول شوقي – ضيف ص٤٩٨.

(٢) انظر ما ورد في الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ٢٠ / ٥٩ – ٦٠.

فاستخدم الكناية في قوله (قطب السرور)، ويعني (النبيذ)، فقد نفد ما لديهم منه، وهو سر اللهو والسعادة كما يزعم.

وإذا كان العطوي يكني الخمر بقطب السرور فقد استخدم أحد أصدقاء أحمد بن يوسف العبارة ذاتها، ولكن أتت بمعنى آخر، نقتطف جزءًا من رسالته التي كتبها في يوم دجن يصف فيها الأحوال الجوية ومجلس اللهو والأنس، من ذلك قوله[1]:

(يومنا يوم ظريف النواحي رقيق الحواشي، قد رعدت سماؤه، وبرقت وحنت وارجحنت وأنت قطب السرور..) فاستخدم الكناية في قوله رعدت سماؤه وبرقت وارجحنت كناية عن هطول المطر وزمجرة الرعد، وقوله:

(قطب السرور) كناية عن مكانة أحمد بن يوسف عند صديقه لأنه مصدر سرور المجلس الذي لا يكتمل إلا بتواجده.

ومنه أيضًا رسالة بديع الزمان الهمذاني إلى أبي القاسم الكرخي يعتذر عن زيارته[2].

(يعز علي أطال الله بقاء الشيخ الرئيس – أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي)، فقوله ينوب في خدمته قلمي كناية عن الرسالة، وقوله: (عن قدمي) كناية عن زيارته له.

ومنه أيضًا رسالة منصور الباخرزي إلى فضل الشاعرة[3].

١- إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه . وكل امرىء لا يقبل العذر مذنب

(١) انظر ما ورد في الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ١٣ / ٣٠.
(٢) انظر ما ورد في: زهر الآداب الحصري / ٨٦٣ والأغاني أبو الفرج الأصبهاني ٤٣/٢٠.
(٣) انظر ما ورد في الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١١٧/٢٠ وللاستزادة صبح الأعشى القلقشندي ١٥١/٩.

فقوله:(محا العذر ذنبه) كناية عن العفو المطلق ونسيان إساءات التصرف.

ووردت الكناية أيضًا في رسائل الاستزارة ووصف الأطعمة والأشربة، كرسالة جحظة البرمكي إلى صديق له يدعوه لزيارته، يقول فيها[1]:-

١- لنا يا أخي فرحة وافرة وقدر موفرة حاضرة .

٢- وراح تريك إذا صفقت سنا البرق في الليلة الماطرة .

فاستعان بالكناية ليصف نقاء وصفاء الراح، فمن شدة نقائها وصفائها تعكس سنا البرق في الليلة الماطرة، وهذا يبين لون النبيذ المشروب (الأبيض) وإن كان اللون الأبيض يرمز للنقاء والطهارة والصفاء، وهو أثر إيجابي؛ فإن لون الراح يرمز لنصاعة البياض وشدة نقاوته[2].

كما وردت في رسائل دعوات الاستزارة. مثال ذلك ما كتبه أخ إلى أخيه يستدعيه:

(أما بعد فإنه من عانى الظمأ بفرقتك استوجب الري من رؤيتك والسلام).

فقوله: (عانى الظمأ بفرقتك) كناية عن التشوق الشديد لرؤيته، وهذا يدل على محبته ومكانته الرفيعة، وقوله: (استوجب الري من رؤيتك) كناية عن اللقاء والزيارة واستمتاع بعضهما ببعض.

(١) انظر ما ورد في: الأغاني / أبو الفرج الأصبهاني ١١٧/٢٠.
(٢) انظر ما ورد في زهر الآداب – الحصري القيرواني ٤/ ١١٤٦.

ومن الكنايات أيضًا التي تستوجب الوقوف عندها ما ورد في رسالة أحد الكتاب يقول في رسالته[1]: (إن رأيت أن تحدد لي ميعادًا لزيارتك، أتقوته إلى وقت رؤيتك، ويؤنسني إلى حين لقائك فعلت إن شاء الله).

فقوله: (أتقوته) كناية واستعارة أيضًا، حيث جعل ميعاد الزيارة شيئاً ملموسًا (قوت) كناية عن الصبر والأمل في لقاء الصديق.

ومنه قول أحدهم[2]:

إذا صاحب لك واعدتهُ ليوم اجتماع من الجمعة
.
فقو عزيمته في الوفا بتذكرة لك في رقعة
.

فقوله: (بتذكرة لك في رقعة) كناية عن الرسالة، وهي إنشاء رسالة الاستزارة لحث الصديق على المجيء.

ومنه رسالة بديع الزمان إلى شمس المعالي[3]:

(.. بين حُلْوٍ استرقني، ومرٍّ استخفني، وشر صار إليّ، وخير صرت إليه، .. فأكون طورًا مشرقًا للمشرق الأقصى، وطورًا مغربًا للمغرب، ولا مطمح إلا حضرته الرفيعة..).

استخدم الكناية ليبين أن الأيام لا تبقى ثابتة على حال واحدة بل تقبل عليه وتدبر عنه)، وبين كذلك كثرة حله وارتحاله وتنقله بين الأوطان رغبة في لقائه وزيارته.

---

(١) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ١١٤٦/٤ وانظر للاستزادة ما ورد المصدر نفسه ٤١٨/٢.

(٢) انظر ما ورد في: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصبهاني ٦٤٦/١.

(٣) انظر ما ورد في زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري القيرواني ٤١٧/٢.

ومثله رسالة لعلي بن خلف يدعو للاستزارة ويصف المجلس[1]:

(هذا اليوم – أطال الله بقاء سيدي – يوم أعرس فيه الجو بالجارية البيضاء فخدرها، وحجبها بسجف الغمام وسترها،..) أراد أن يصف الأحوال الجوية التي تزيد مجلس اللهو إثارة وجمالًا؛ فوصف اليوم بأنه مطير تحفه الغيوم، والمناظر طبيعية خلابة تستثير المشاعر وتحركها؛ حتى يهب لزيارته ويشاركه مجلسه.

وعلى هذه الشاكلة استخدمت الكناية لغرض بلاغي؛ لتمنح الرسائل جمالًا وروعة.

* = *

(١) انظر ما ورد في صبح الأعشى القلقشندي ٩ / ١٥١.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأدباء. دار الثقافة، بيروت – لبنان، طَ ، ١٤٠١هـ.

٢- ابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ، د. ت.

٣- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة – مصر. طَ، د. ت.

٤- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥- أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ضبطه وشرحه، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت – لبنان، طَ، د. ت.

٧- أبو الحسن علي النووي، مختارات من أدب العرب قسم النثر، دار الشروق، جدة – السعودية، ط٢، عام ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٨- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، طَ، د. ت.

٩- أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار الفكر للطباعة والنشر، قوبل على نسخة قديمة بالكتبخانة الخديوية، د.ط، د.ت.

١٠- أبو القاسم – حسين بن محمد الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان، د.ت، د. ط.

١١- أبو القاسم محمد الكلاعي الأشبيلي، أحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد الراية، عالم الكتب، بيروت، د. ط، د. ت.

١٢- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت – لبنان، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٣- أبي زكريا يحي النووي الدمشقي، رياضي الصالحين، مؤسسة الرسالة. د.ت.

١٤- أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني الأندلسي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٤، بيروت – لبنان، ١٩٧٢م.

١٥- أبو محمد عبدالله بن قتيبة الدينوري، أدب الكاتب، حققه محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٦- أبو محمد عبدالله ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، طَ، د. ت.

١٧- أبو منصور عبد الملك الثعالبي، رسائل الثعالبي، دار صعب، بيروت، طَ، د. ت.

١٨- أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، الصناعتين (الكتابة والشعر)، حققه: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٩- أحمد أمين، النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية طَ، ١٩٧٢م.

٢٠- أحمد الشايب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ط٨، ١٩٨٨م.

٢١- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، دار الاتحاد العربي للطباعة، ط٨، ١٩٧٣م.

٢٢- أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية ومطبعة السعادة، ط٧، ١٣٩٦هـ - ١٩٨٦م.

٢٣- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط٢٩، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٤- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة عام ١٩٩٦م.

٢٥- أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، المطبعة الأميرية ١٩٥١م، القاهرة – مصر.

٢٦- أحمد زكي، النقد الأدبي الحديث أصوله واتجاهاته، دار النهضة العربية بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨١م.

٢٧- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، المكتبة العلمية، بيروت – ١٣٥٧هـ - ١٩٣١م. د. ط.

٢٨- أحمد كمال زكي، النقد الأدبي الحديث. أصوله واتجاهاته. دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨١م.

٢٩- أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ١٩٧٢م.

٣٠- أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٧م.

٣١- أحمد مصطفى مراغي، علوم البلاغة (البيان – المعاني – البديع)، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت – لبنان) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٣٢- إدريس الكريوي، جماليات القصة القصيرة. دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ٢٠١٠م.

٣٣- أنور الجندي، خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ط٢، بيروت – لبنان، ١٩٨٥م.

٣٤- الرماني وآخرون معه، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، د. ط. د. ت.

٣٥- السكاكي، مفتاح العلوم. د. ط. د. ت.

٣٦- السيد الهاشمي، جواهر البلاغة في علم المعاني والبيان والبديع. ط٦. د. ت.

٣٧- الباقلاني، صححه محمد عبده، دلائل الإعجاز في علم المعاني. دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت – لبنان، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، طـ.

٣٨- محمد الراية، أحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس الكلاعي الأشبيلي. عالم الكتب، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣٩- إيليا الحاوي، في النقد والأدب. دار الكتاب اللبناني، جـ٢، ط٤، بيروت – لبنان، ١٩٧٩م.

٤٠- بطرس البستاني، أدب العرب في الأعصر العباسية، دار الجيل ودار مارون عبود، بيروت – لبنان، ١٩٧٩م.

٤١- بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني). دار العلم للملايين، ط٢، بيروت – لبنان، ١٩٨٤م.

٤٢- بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني. دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٩م.

٤٣- جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٤- حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة مصر، ١٩٧٥م. د. ط.

٤٥- حسني ناعسة، الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٤٦- حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية –د.ط. ط. ت.

٤٧- ريناتهياكوبي، دراسات شعرية القصيدة العربية. ترجمة: موسى ربايعة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية للنشر والتوزيع، إربد – الأردن، د.ط، عام ١٤١٥هـ - ٢٠٠٥م.

٤٨- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة – مصر. د. ط. د. ت.

٤٩- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي (الأول)، دار المعارف، القاهرة – مصر. ط٨. د. ت.

٥٠- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي (الثاني)، دار المعارف القاهرة – مصر، ط٢، ١٩٧٣م.

٥١- شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف – القاهرة مصر، ط٦، د. ت

٥٢- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف، القاهرة – مصر، ط٩، د. ت.

٥٣- صالح ويس، الصورة اللونية في الشعر الأندلسي. دار مجدلاوي للنشر والتوزيع. ط١، عام ٢٠١٣هـ - ٢٠١٤م.

٥٤- ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانه، منشورات دار الرفاعي، ط٢، الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥٥- عمرو الجاحظ، البيان والتبيين، حققه وقدم له فوزي عطوي. دار صعب، بيروت – لبنان، فبراير ١٩٦٨م.

٥٦- عبد الحميد الدواخلي، نصوص مختارة من الأدب العربي (النثر من القرن الثاني إلى القرن التاسع)، ط١، عام ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

٥٧- عبد الرحمن الهليل، التكرار في شعر الخنساء دارسة فنية. دار المؤيد، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥٨- عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني، الألفاظ الكتابية، صححه وضبطه لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين– بيروت – لبنان ط٨، ١٩٢١م.

٥٩- عبد الرحمن محمد بن خلدون المغربي، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م بيروت – لبنان، طَ .

٦٠- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت – لبنان. د.ط. عام ١٩٨٣م.

٦١- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس. دار النهضة العربية، بيروت – لبنان، ١٩٧٦م.

٦٢- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٦٣- محمد رشيد رضا، أسرار البلاغة في علم البيان عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، طَ.

٦٤- عبد المتعال الصعيدي، الإيضاح لتلخيص المفتاح (علم البيان)، مكتبة ومطبعة محمد علي، القاهرة – مصر، ط٨، د. ت.

٦٥- عفيفي عبد الرحمن، معجم الأمثال العربية القديمة، دار العلوم، الرياض السعودية، ط١، عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٦٦- علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف مصر، ط٢، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٦٧- علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٦٨- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٦٩- علي بن الحسين المرتضى، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٢، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٧٠- غازي اليموت، علم أساليب البيان، دار الفكر اللبناني، بيروت – لبنان، د.ط. د. ت.

٧١- فوزية خضر، إطلالة جديدة على الشعر السعودي. من إصدارات نادي الطائف الأدبي، ط٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٧٢- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات. منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٧٣- كامل السوافيري، دراسات في النقد الأدبي، مكتبة الوعي العربي، ط١، الفجالة، القاهرة – مصر، د. ط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٧٤- كمال عيد، فلسفة الأدب والفن. الدار العربية للكتاب – ليبيا، تونس، د.ط، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٧٥- محمد الداية، الحيوان: الجاحظ، دار إحياء التراث العربي المجمع العلمي العربي الإسلامي منشورات، بيروت – لبنان، ط٣، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

٧٦- محمد زغلول سلام، دراسات في الأدب العربي العصر العباسي. منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال حزى وشركاه طبع بمطبعة التقدم بالإسكندرية، د.ط، د. ت.

٧٧- محمد سعد أطلس، تاريخ العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٣م.

٧٨- محمد شاكر الربيعي، الشعر في المشرق العربي في العصر الوسيط من سنة ٦٥٦هـ - ١٢١٣هـ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ومؤسسة دار الصادق الثقافية، عمان – الأردن، طَ ، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٧٩- محمد عبد المنعم خفاجي، الإيضاح في علوم البلاغة الإمام الخطيب القزويني، دار الكتاب اللبناني. ط، د. ت.

٨٠- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت – لبنان، د.ط، ١٩٨٧م.

٨١- محمد فؤاد عبد الباقي، معجم غريب القرآن مستخرجًا من صحيح البخاري، دار المعرفة، ط٢، بيروت – لبنان.

٨٢- محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانين والعصر الحديث. د.ط، مطابع دار الكتاب العربي بمصر سنة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.

٨٣- محمود عبد الرحيم صالح، فنون النثر في الأدب العباسي، دار جرير، عمان – الأردن، ط٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

٨٤- مصطفى الصاوي الجويني، ألوان من التذوق الأدبي، منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال حزى وشركاه.

٨٥- منال عبد العزيز العيسى، ملتقى المرأة والنص. شعرية الذات المكانية في الخطاب السردي النسائي. النادي الأدبي بالرياض، ط١، ١٣٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٨٦- وليد قصاب، دراسات في النقد الأدبي، دار العلوم للطباعة والنشر، طَ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	رقم الصفحة
التمهيد ويشمل:	٦٥٠
التعريف بفن الرسائل ورسائل الاستزارة.	
المبحث الأول: -	٦٥٣
أولًا: دراسة أدبية لأنواع رسائل الاستزارة.	٦٥٤
ثانيًا: دراسة أدبية لأجوبة رسائل الاستزارة وأنواعها.	٦٧٩
المبحث الثاني:-	٦٩٨
ويشمل دراسة فنية:	
أ- ألفاظ الرسائل ودلالتها.	٦٩٩
ب- البناء التركيبي للرسائل.	٧١٠
ج- المحسنات البديعية:	٧٢١
وتشمل:	
(الجناس – السجع – الطباق – المقابلة – الاقتباس- التضمين)	٧٢٢- ٧٤١
د- دراسة الصورة الفنية وتشمل:-	٧٤٢
(التشبيه – الاستعارة – الكناية)	٧٤٣- ٧٦١
فهرس المصادر والمراجع	٧٦٢
فهرس الموضوعات	٧٧١